أثر النزعة النقدية في توجيه الفلسفة التربوية

لدى طه حسين

د/أحمد خميس زكي مرعي

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية -

تمهيد

تُعد الفلسفة التربوية ركيزة مهمة في أي مجتمع؛ من أجل الإصلاح والتنمية والتقدم، وقد حازت على اهتمام كثير من الفلاسفة، والمفكرين المسلمين قديماً وحديثاً وفي العصر الحاليّ، مثل: ابن سينا(ت٤٢٨هـ)، وابن حزم(ت٤٥٦هـ)، والغزاليّ (ت ٥٠٥هـ)، وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) قديماً، ورفاعة الطهطاويّ (ت ١٨٧٣م) والإمام محمد عبده(ت ١٩٠٥م) حديثاً، وطه حسين (ت ١٩٧٤م) في الفكر العربي المعاصر، وغيرهم.

وقد لامست حاجة المجتمع - لاسيما في بلدنا الحبيبة مصر - في الوقت الحاليّ إلى وجود فلسفة تربوية تحاول إصلاح أوجه الخلل والقصور الذي اعترى النظام التربويّ والتعليميّ على الرغم من الجهود المبذولة في هذا المجال، وقد وجدت في الفلسفة التربوية التي دعا إليها المفكر والأديب والفيلسوف الكبير طه حسين ضالتي؛ من أجل الإصلاح ما استطعت.

وقد تناولت بعض الدراسات السابقة فكر طه حسين التربويّ، وكان هذا تناول إما أن يُعنى بالجانب التعليميّ فقط من الفلسفة التربوية مثل: الدراسة القيمة التي قام بها الدكتور مصطفى رجب، والتي كانت بعنوان " فكر طه حسين التربويّ بين النظر والتطبيق"، وإما أن يُبحث فكره التربويّ إجمالاً ضمن أفكاره الأخرى مثل: الدراسة القيمة التي قام بها الدكتور كمال حامد مغيث، والتي كانت

بعنوان "طه حسين مصادره الفكرية- العدالة الاجتماعية- الديمقراطية- الحرية الأكاديمية- الفكر التربوي- الهوية الثقافية"، ولكنى رأيت ضرورة تسليط الضوء على ما يتعلق بالفلسفة التربوية فقط في فكر طه حسين حتى يمكن الاستفادة منها في علاج مواطن الخلل في نظامنا التربوي والتعليمي.

والإشكالية التي انطلقت منها في هذه الدراسة تتمحور حول الكيفية التي عالج بها طه حسين مسألة التربية، وكيف أثر الاتجاه النقدي لديه في فلسفته التربوية؟

وكانت هناك تساؤلات كثيرة حاولت الإجابة عنها عن طريق هذا البحث، ومن أهمها:

- هل يمكن القول: إن هناك فلسفة تربوية عند طه حسين؟ أم كانت مجرد أفكار متناثرة؟
- إذا كانت هناك فلسفة تربوية عند طه حسين، فما طبيعتها؟
- ما الأسس التي بنى عليها طه حسين فلسفته التربوية؟
- ما أثر النزعة النقدية عند طه حسين في فلسفته التربوية؟ وهل جاءت فلسفته التربوية متوافقة مع تلك النزعة؟
- هل كان لفلسفة طه حسين التربوية أثر في المجتمع؟
- هل يمكن الاستفادة من فلسفة طه حسين التربوية في إصلاح أوجه قصور النظام التربوي والتعليمي في الوقت الحالي؟ وأثر ذلك في المجتمع؟

أما عن المنهج المستخدم في هذه الدراسة فهو المنهج التحليلي النقدي.

واشتملت هذه الدراسة على تمهيد أوضحت فيه أهمية موضوع الدراسة، وعرضت فيه جانباً من الدراسات السابقة، والإشكالية التي انطلقت منها، وأهم التساؤلات، والمنهج المستخدم فيه، وعناصر هذه الدراسة، وهي كالآتي:

أولاً- العلاقة بين الفلسفة والتربية.

- ١- مفهوم الفلسفة التربوية.
- ٢- نظريات الفلسفة التربوية.

ثانياً- الفلسفة التربوية عند طه حسين

- ١- تربية النفس وإصلاح فكرها بالعقلانية.
- ٢- التربية لن تؤتي أكلها إلا بالديمقراطية والحرية.
- ٣- التربية وإصلاح التعليم.

وأخيراً اختتمت هذه الدراسة بأهم النتائج التي توصلت إليها؛ والتي حاولت عن طريقها الإجابة عن التساؤلات التي جاءت في مستهل هذه الدراسة.

أولاً- العلاقة بين الفلسفة والتربية

ترتبط التربية بالفلسفة في علاقة وثيقة، إذ إن التربية تستمد أساسها من الفلسفة، ويرجع ذلك إلى أن الفلسفة بما تتضمنه من آراء، ونظريات، ومبادئ هي التي ترشد وتوجه التربية نحو الأهداف، والغايات التي يسعى المجتمع إلى تحقيقها؛ من أجل الإصلاح، والتقدم؛ لذا يمكن القول: إن الأصل الفلسفي للتربية هو بداية كل عمل تربوي ناجح؛ لأنها تُعد الإطار الفكري الشامل الذي يوجه النظرية التربوية ويحاول تطبيقها، وهذا هو الذي قاد الفيلسوف " جون ديوي (ت ١٩٥٢م) إلى القول: " إن

الفلسفة هي نظرية للتربية من حيث كونها عملية مقصودة^(١)؛ أي أن الفلسفة هي التي تضع الإطار الفكري الذي يجب على التربية تطبيقه؛ بغرض الوصول إلى أهداف معينة يريجوها المجتمع.

ولما كان الحال كذلك فإننا نجد أن هناك علاقة وثيقة بين الفلسفة والتربية، وأرى أنه من الضروري في البداية تحديد مفهوم الفلسفة التربوية، وبيان أهم نظرياتها؛ حتى تتضح معالم تلك العلاقة.

١- مفهوم الفلسفة التربوية

حاول كثير من الفكرين لاسيما من عُنِي منهم بمسألة التربية، أن يحدد معنى الفلسفة التربوية؛ إذ يعرفها بعضهم بأنها: الجهد المقصود لتطبيق الفكر الفلسفي في ميدان التربية، أو تطبيق النظرة الفلسفية العامة في رؤية مكونات التربية، والبحث عن المعرفة، والقيم، ونقد المسلمات والفروض، التي تقوم عليها، مع تنسيق عمليات التربية، وتعديلها على ضوء متغيرات المجتمع ومشكلاته، لِمَا يتضمنه من توجيه الأنشطة التربوية بجميع جوانبها^(٢).

كما أن الفلسفة التربوية تُعدُّ حالة الوعي الإنساني الذي يقوم على التفكير الناقد الذي يستند إلى تطبيق طبيعة النظرة الفلسفية، والمنهج الفلسفي على ميدان العمل التربوي؛ بهدف تصميم بنيته، واختيار أهدافه ومضامينه وطرائقه، فضلاً عن توضيح هذه العناصر وتفسيرها وتحليلها ونقدها؛ بقصد إدراكها وتطويرها في ضوء فهم

(١) جون ديوي: الديمقراطية والفلسفة، مقدمة في فلسفة التربية، نقله إلى العربية، متى عقراوي، وركريا ميخائيل، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٤٩.

(٢) أحمد علي الحاج: في فلسفة التربية " نظرياً وتطبيقياً"، دار المناهج، ط/١، الأردن، ٢٠١٤م، ص ٦٨.

المتغيرات الثقافية والاجتماعية المستمرة في المجتمع، حتى تبقى التربية آلية المجتمع الفعالة في تحقيق التوازن الثقافي في واقع الحياة^(١).

والفلسفة التربوية تركز على أربعة موضوعات أساسية، وهي: نظرية الوجود، ونظرية المعرفة، ونظرية القيم، وطبيعة الإنسان؛ الأمر الذي يفترض معه في كل نظام تربويّ- أن تتكامل برامج ونظمه ومؤسساته؛ لإخراج إنسان متعلم يحمل تصوراً شاملاً مفصلاً عن هذه القضايا الأربع، ثم تكون لديه القدرة على ترجمة هذا التصور في سلوكه وعلاقاته مع الكون، والإنسان، والحياة^(٢).

٢- نظريات الفلسفة التربوية

تتعدد نظريات الفلسفة التربوية وفق نظرة كل مفكر أو فيلسوف لهذه القضايا الفلسفية السابق ذكرها، وأعنى بها الوجود، والمعرفة، والقيم، والإنسان؛ إذ إن هناك فلسفة تربوية مثالية، وأخرى واقعية، وثالثة برجماتية، ورابعة وجودية، وغير ذلك من الفلسفات التربوية الأخرى.

أ- الفلسفة التربوية المثالية

ترجع نشأة الفلسفة المثالية إلى "أفلاطون" (ت٣٤٧ق.م) الذي يُعد المؤسس الأول لهذه الفلسفة التي امتد أثرها حتى العصر الحديث، على يد كل من ديكارت (ت١٦٥٠م)، وسبينوزا (ت١٦٧٧م)، وباركلي (ت١٧٥٣م)، وكانط (ت١٨٠٤م)، وغيرهم، والفلسفة المثالية تقوم -عامة- على إرجاع الوجود إلى الفكر؛ إذ إن الواقع الطبيعيّ الذي نعيشه، ويحيط بنا هو رُوحِي في أساسه، فالواقع الطبيعيّ ليس له وجود مطلق، بل إنه ظواهر لواقع رُوحِي؛ ومن ثمّ فالمظهر الخارجي للإنسان

(١) محمد محمود الخوالدة: مقدمة في فلسفة التربية، دار المسيرة، عمان، الأردن، ٢٠٠٣م، ص ٣٣٥.

(٢) ماجد عرسان الكيلاني: فلسفة التربية الإسلامية، دار المنار، ط/١، جدة، ١٤٠٧هـ، ص ٣٩.

ليس حقيقته، بل الروح هو حقيقته وجوهره، أي أن الروح أو العقل هو العالم الحقيقي، أما الأشياء في العالم الطبيعي فهي أشباح أو ظلال لعالم المثل، وهي لا وجود لها إلا بمقدار إدراك العقل لها واقتربها من عالم المثل^(١).

وقد اهتمت الفلسفة التربوية المثالية بالعلوم النظرية ذات الطابع العقلي التحليلي، التي تساعد الإنسان على تنمية ملكاته العقلية والخلقية، كالفلسفة، والرياضيات، والمنطق، وهي تهدف إلى ضبط النفس، وعدم الانقياد وراء الشهوات، وكبت الرغبات، والتحكم في الحواس، وفرض الأوامر؛ لغرس الطاعة والاحترام والالتزام الصارم بالنظام^(٢).

ب- الفلسفة التربوية الواقعية

ترجع النشأة الأولى للفكر الفلسفي الواقعي إلى المعلم الأول "أرسطو" (ت ٣٢٢ ق.م)، ويرى أن الواقع المادي المحسوس المائل للعيان له وجود مستقل عن العقل والمثل، وهذا الواقع هو مصدر كل الحقائق التي تكون كامنة في الأشياء، وليست كامنة في الأفكار، والشيء موجود، سواء أكانت لدينا فكرة عنه أم لا، ووجود هذا الشيء مستقل عن الفكرة المختصة به، والعقل ونشاطه نابعان من المادة وتابعان لها، وما العالم الطبيعي الخارجي إلا ما تدركه عقولنا بكل صورته، وهو عالم التجربة البشرية الذي نعيشه بالتجربة والخبرات اليومية، وأشهر فلاسفة الواقعية في العصر الحديث هو "جون لوك" (ت ١٧٠٤م)، و"ديفيد هيوم" (ت ١٧٧٣م)^(٣).

(١) محمد حسان: مقدمة في فلسفة التربية، دن، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٤٩، أيضاً: أميرة حلمي مطر:

الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٣) أحمد على الحاج: في فلسفة التربية، ص ١١٠-١١٢، أيضاً: أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية، ص

وقد حاولت الفلسفة الواقعية تنمية شخصية الإنسان من جميع جوانبها: العقلية، والجسدية، والنفسية، والأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية في كل متكامل، مع تزويده بالمعارف التي يحتاجها للحياة في العالم الطبيعي، وتعتمد طريقة التدريس في تلك الفلسفة التربوية الواقعية على المناقشة والحوار في نقل المعرفة باستخدام التجريب، والملاحظة، والاستقراء^(١).

ج- الفلسفة التربوية البرجماتية

يُعد الفيلسوف "جون ديوي" هو مؤسس الفلسفة البرجماتية، وترى تلك الفلسفة أن العالم وما يحويه من مظاهر طبيعية، واجتماعية، وإنسانية في حالة تغير دائم، وصيرورة مستمرة، فكل شيء يتغير، وثقافته تنمو وتتحوّل من صورة إلى أخرى، والأحداث تأتي وتذهب، والكائنات الحية تولد وتموت، وثقافة المجتمع تنمو وتتحوّل من شكل إلى آخر، ومن ثمّ لا يوجد ثبات وجمود خارج نطاق الحركة والتغير والتقدم؛ إذ أضحى التغير حقيقة الكون وجوهه^(٢).

وترى الفلسفة التربوية البرجماتية أن المعرفة القبلية للإنسان أو المعرفة السابقة على التجربة لا وجود لها، ولكنها نابغة من الخبرة والنشاط الذاتي للفرد، وتفاعله مع عناصر البيئة المحيطة به، وسعيه من أجل البقاء والعيش، والتغلب على المشاكل التي تواجهه، والمعرفة الحقة يجب أن تكون أدائية، ووظيفتها استمرارها؛ إذ إن المعرفة الحقة هي التي تساعدنا على إمكانية تطبيقها والتغلب على مشكلات الحياة وعلى تكيف البيئة وتطويرها؛ لخدمة أغراض الإنسان، وإرضاء حاجاته، والمعرفة التي لا يمكن استخدامها وتطبيقها في الحياة الحاضرة والمستقبلية لا قيمة لها، بما في ذلك المعرفة

(١) المرجع السابق، ص ١١٤-١١٥.

(٢) جون ديوي: الديمقراطية والفلسفة، ص ١-٤، أيضاً: حسان محمد حسان: مقدمة في فلسفة التربية، ص

١٠٤، أيضاً: أحمد على الحاج: في فلسفة التربية، ص ١١٦.

الماضية، فإذا لم تساعدنا على فهم مشكلات الحاضر وحلها أو التنبؤ بالمستقبل فلا معنى لها، كما أن القيم ليس لها وجود مستقل أو مستمد من قيم غلبا مفروضة على الإنسان، بل إنها أمور إنسانية تتبع من صميم الحياة؛ نتيجة تفاعل الفرد مع البيئة والمجتمع، أي من الخبرة والتجربة، ويتوقف صدق القيم الأخلاقية أو كذبها على النتائج العملية، وما نجنيه من ثمار تأتي بالتجربة والعمل^(١).

وخلاصة القول: إن العلاقة بين الفلسفة والتربية وثيقة؛ إذ إن التربية ليست إلا نتاج المذاهب الفلسفية، كما أن القائمين على أمر التربية في كثير من الأحيان يُعدّون من الفلاسفة، كما هو الحال مع أفلاطون قديماً، وجون ديوي حديثاً.

وبعد بيان مفهوم الفلسفة التربوية، وأهم نظرياتها، التي تُعد من وجهة نظري مقدمة ضرورية لا غنى عنها؛ لفهم مضمون الفلسفة التربوية عند "طه حسين"، وأثر الاتجاه النقديّ عنده في تلك الفلسفة.

ثانياً- الفلسفة التربوية لدى طه حسين

تتضح معالم الفلسفة التربوية لدى "طه حسين" - من وجهة نظري- من خلال ذلك الكم الهائل من المؤلفات، والمقالات التي كتبها " طه حسين"، وأهم هذه المؤلفات: " في الشعر الجاهلي"، و" مستقبل الثقافة في مصر"، إذ إن الكتابين معاً جاءا ليعبرا عن مسار فكريّ، ويجسدان رؤية لماهية الموقف الذي يحدد هذا المسار، كما تتضح تلك الفلسفة أيضاً عن طريق ما قام به " طه حسين" نفسه من محاولات كثيرة لتطبيق أفكاره التربوية في واقع المجتمع، فضلاً عن حياته العلمية بوصفه أستاذ في الجامعة، بالإضافة المناصب الإدارية التي شغلها، ولاسيما توليه منصب وزارة المعارف المصرية.

(١) جون ديوي: الديمقراطية والفلسفة، ص ٦، أيضاً: أحمد على الحاج: في فلسفة التربية، ص ١١٩-١٢١.

وتقوم الفلسفة التربوية لدى "طه حسين" - من وجهة نظري - على ثلاثة أسس، وهي: تربية النفس وإصلاح فكرها بالعقلانية، كما أن التربية لن تؤتي أكلها إلا بالديمقراطية، والحرية، وكذلك لا بد من إصلاح التعليم، وقد تبنى طه حسين في عرضه تلك الأسس منهجاً نقدياً، من أجل الإصلاح.

١- تربية النفس وإصلاح فكرها بالعقلانية

تبنى "طه حسين" العقلانية بوصفها منهج تقوم عليه فلسفته التربوية؛ إذ يدعو ذلك المنهج عنده إلى تحرير العقل من كل الافتراضات المسبقة، بل الشك في كل ما يُعد من المسلمات، والحقائق الثابتة؛ بغرض تمحيصها ونقدها؛ من أجل الوصول إلى اليقين بعد تحكيم العقل، وأخذة إياه مقياساً للحقيقة في كل مناحي الحياة العلمية، والفلسفية، والأدبية، والأخلاقية، والاجتماعية.

والقاعدة الأساسية لهذا المنهج عند "طه حسين" هي: أن يتحرر الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً؛ حتى يتمتع فكر الباحث بالحركة العقلية الحرة كما يرى "طه حسين" (١).

وأرى أن العقلانية المتمثلة في المنهج القائم على إعمال العقل، والشك، بغرض الوصول إلى اليقين عند "طه حسين" قد استعاره من الفيلسوف ديكارت (١٥٩٦م-١٦٥٠م)؛ من أجل تطبيقه على كل مناحي الحياة؛ إذ إن طه حسين يرى أن منهج الشك الديكارتي ليس مناسباً للعلم، والفلسفة، والأدب فقط، بل يمكن تطبيقه في الأخلاق، والحياة الاجتماعية أيضاً، كما أن هذا المنهج ليس حكرًا على الذين يدرسون العلم، ويكتبون فيه وحدهم، بل إنه حتمي على الذين يقرأون أيضاً (٢).

(١) طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار المعارف، ط/٢، سوسة، تونس، ١٩٩٨م، ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

ولم يكتفِ " طه حسين " بالدعوى إلى أعمال العقل، وتبني مذهب الشك في كل مناحي الحياة؛ بل حاول أن يطبق هذا المنهج بنفسه بالفعل، لا سيما في دراسته عن الشعر الجاهليّ، وكانت حجته في ذلك أن للمسألة وجهاً آخر لا يتناول الفن الكتابيّ، أو الشعريّ، بل يتناول البحث العلميّ عن الأدب، وتاريخ فنونه؛ إذ إنه قد وجد نفسه أمام خيارين، إما أن يقبل في الأدب وتاريخه كل ما قال به القدماء، فلا يتناوله بالنقد إلا بالقدر اليسير كأن نقول: أخطأ " الأصمعيّ "، أو أصاب، ووفق " أبو عبيدة " أو لم يوفق، واهتدى الكسائيّ *** أو ضل الطريق، وإما أن يضع علم المتقدمين كله موضع البحث أي (الشك)، فلا يقبل شيئاً مما قال به القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وثبت، فإن لم ينته إلى اليقين، فقد ينتهي إلى الرجحان^(١).

ويرى طه حسين أن الفرق بين الخيارين السابقين عظيم؛ إذ إن هناك فرقاً بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضا، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب، وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود، والمذهب الأول يترك كل شيء كما تركه القدماء، فلا يناله بتغيير، ولا تبديل، ولا يمسه في جملته، وتفصيله

* هو الإمام العلامة الحافظ، حجة الأدب، لسان العرب، أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك بن علي بن أصمغ، الأصمعيّ البصريّ اللُغويّ الإخباريّ، ولد سنة بضع وعشرين ومائة، وكان موته في سنة خمس أو ست عشرة ومائتين من الهجرة. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج/١٠، إشراف وتحقيق شعيب الأرنؤوط، حقق هذا الجزء محمد نعيم، مؤسسة الرسالة، ط/١، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٧١-١٨٤).

** هو الإمام الحافظ ذو الفنون، أبو عبيد، القاسم بن سلام بن عبد الله، كان مولده سنة ١٥٧هـ، وقد كان مؤدباً صاحب نحو وعربية، وطلب للحديث والفقه، وله تصنيفات كثيرة منها: " غريب الحديث "، و" فضائل القرآن "، والناسخ والمنسوخ، وغيرها، وقد كانت وفاته نحو سنة ٢٢٤هـ. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج/١٠، ص ٤٩١-٥٠٨).

*** هو الإمام، شيخ القراءة والعربية أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسديّ، الملقب بالكسائيّ، وهو أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم في الغريب، والأوحد في علم القرآن، له عدة من تصانيف منها: معاني القرآن، وكتاب في القراءات، وكتاب النوادر الكبير، ومختصر في النحو، توفي نحو سنة ١٧٠ هـ. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج/٩، ص ١٣٢-١٣٤).

(١) طه حسين: في الشعر الجاهليّ، ص ١٤.

إلا مسأً رقيقاً، أما المذهب الثاني، فإنه يقلب العلم القديم رأساً على عقب؛ إذ إنه يعمل منهج الشك فيه؛ بهدف الوصول إلى اليقين^(١)

وأرى أن هذه الدعوى التي أطلقها طه حسين، والمتمثلة في ضرورة إخضاع كل ما يصل إلينا من كتابات القدماء للعقل، وعدم الاستسلام لسلطان الماضي على الحاضر، قد تلقفها الكثير من المفكرين في عالمنا العربي، ومنهم على سبيل المثال: زكي نجيب محمود الذي يرى أن من أهم المعوقات التي يجب التنبه إليها في قراءتنا لكتابات القدماء أن يكون للسلف سلطة مطلقة علينا، فنجعل للماضي قداسة وعصمة من الخطأ تكون بمنزلة السيطرة الكاملة التي يفرضها الموتى على الأحياء. فتميل إلى الدوران فيما قاله السلف وإعادته، من دون أن نضيف ما يعبر عن وجودنا وفكرنا نحن^(٢)؛ فقد يجد الإنسان نفسه حيال فكرة أو عبارة قالها رجل قضى منذ زمن، لكنه ترك وراءه شهرة وسمعة تملأ النفوس بالرهبة، ويجد هذا الإنسان حينئذ أنه من المتعذر عليه النجاة من سحر هذه الرهبة، وأن أيسر السبل وأمنها من الزلل هو أن يتقبل كل ما قد تركه له سلفه ذلك ذو الشهرة والسمعة، وقد يتحول الأمر بعد ذلك عند هذا الإنسان من إعجاب بالقديم إلى تقديس له، يوهمه بأن ذلك القديم معصوم من الخطأ، فحينئذ تتسدل الحجب الكثيفة بين الإنسان وبين ما قد جاءت به الأيام من تطورات في العلم والمعرفة^(٣).

ولما كان الحال كذلك فقد اختار طه حسين أن يسلك سبيل المذهب الثاني القائم على الشك وإعمال العقل في كل ما يصل إلينا من كتابات القدماء؛ إذ يقول: " إن أول شيء هو أنني شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وألححت في الشك، أو قل ألح

(١) المصدر السابق، ص ١٥.

(٢) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي، دار الشروق، ط/٩، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٥١، أيضاً المؤلف: قصة عقل، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢١٦.

(٣) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي، ص ٥٣، أيضاً فاطمة إسماعيل: التفكير الفلسفي عند زكي نجيب محمود، منهج وتطبيقه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٢٥٣.

عليّ الشك، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إن لم يكن يقيناً فهو قريب من اليقين"^(١).

وجدير بالذكر أن طه حسين لم يكن أول من لفت الأنظار إلى أهمية تبني العقلانية بوصفها منهجاً للفكر في العالم الإسلامي؛ بل سبقه إلى ذلك كثير من الفلاسفة المسلمين، ومنهم على سبيل المثل: الغزاليّ، إذ إن أحد أهم الأفكار الرئيسة لفلسفة الغزاليّ تتمثل في تأكيده المستمر ضرورة الاستقلال العقليّ، والابتعاد عن التقليد الأعمى^(٢)؛ لذلك نجد الغزاليّ يقول حينما أراد أن يوجه نصيحة لطالب الحق: " فجانِب الالتفات إلى المذاهب، واطلب الحق بطريق النظر؛ لتكون صاحب مذهب، ولا تكن في صورة أعمى تقلد قائداً يرشدك إلى الطريق، وحوالك ألف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلك وأضلك عن سواء السبيل. وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك، فلا خلاص إلا في الاستقلال...، ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشككك في اعتقادك الموروث؛ لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعاً؛ إذ الشكوك هي الموصلة للحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر، لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال"^(٣).

وقد قام طه حسين في دراسته المختصة بالشعر الجاهليّ باتباع منهج الشك حتى يصل إلى اليقين، فشك في كل ما يتعلق بالشعر الجاهليّ؛ إذ نجده يتساءل: هل هناك شعر جاهليّ بالفعل؟ وإذا كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته؟ وما هذا الشعر؟ وما مقداره؟ وبمّ يمتاز عن غيره؟^(٤).

وقد أخذ طه حسين يبحث عن إجابات هذه الأسئلة بمنهج عقلائيّ، يفترض على من يستعمله عدم التعجل في الوصول إلى الإجابة؛ إذ إن اتباع منهج الشك

(١) طه حسين: في الشعر الجاهليّ، ص ١٩.

(٢) محمود حمدي زقزوق: المنهج الفلسفيّ بين الغزاليّ وديكارت، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٦٩.

(٣) الغزاليّ: ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، ط/١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٤٠٩.

(٤) طه حسين: في الشعر الجاهليّ، ص ١٧.

الديكارتية-من وجهة نظره- ليس سهلاً؛ إذ فيه الكثير من العقبات التي لا تحصى؛ لذا يجب على من يتخذ هذا المنهج سبيلاً لإدراك الحقيقة ألا يمضي إلا في أناة، وتريث، وهما إلى البطء أقرب منهما إلى السرعة؛ إذ إن الباحث الذي يتخذ من العقل مقياساً للحقيقة لا يأخذ نفسه بالإيمان ولا الاطمئنان، لأنه لم يرزق هذا الإيمان والاطمئنان، فقد خلق الله له عقلاً يجد من الشك لذة، وفي القلق والاضطراب رضا، فهو لا يطمئن إلى ما قال به القدماء، بل يلقاه بالتحفظ والشك^(١).

ولما كان الحال كذلك فإنني أرى أن طه حسين لم يتأثر بمنهج ديكارت العقلي فقط، بل إنه تأثر أيضاً بشخص ديكارت نفسه، ويدل على ذلك، التشابه الكبير بين شخصية كل منهما في البحث؛ إذ نجد ديكارت يقول عن نفسه: " أعترف بأنني ولدت وفي نفسي نزعة عقلية تجعلني أجد اللذة القصوى في اكتشاف الحجج بنفسي، لا في الإصغاء لحجج غيري، فكنت كلما صادفني كتاب يماني القارئ باكتشافات جديدة، كنت أحاول النظر فيما إذا كان باستطاعتي الوصول إلى نتائج مماثلة بالاعتماد على فطنتي الطبيعية، وكنت لا أفوت على نفسي تلك اللذة البريئة بالتعجل في قراءة الكتب، وكثيراً ما وفقت في هذه المحاولة، حتى أدركت أنني توصلت إلى الحقيقة، لا كما هو عند سائر الناس، بواسطة بحوث مضطربة لا جدوى منها، تعتمد على الصدف أكثر من اعتمادها على منهج"^(٢).

وقد أدرك طه حسين أن استعمال العقلانية، وتبني منهج الشك الديكارتية، قد ينتهي إلى قلب العلم القديم رأساً على عقب، وهذا هو الذي انتهى إليه بالفعل بعد دراسته المتعلقة بالشعر الجاهلي، إذ يرى أن "الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، بل إنها منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل

(١) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٢) ديكارت: قواعد توجيه الفكر، ترجمة سفيان سعد الله، دار سراس للنشر، تونس، ٢٠٠١م، ص ٧٤، أيضاً:

نجيب بلدي: ديكارت، دار المعارف، ط/٢، مصر، ١٩٦٨م، ص ١٧٧-١٧٨.

حياة الجاهلين...، وإن ما بقي من الشعر الجاهليّ الصحيح قليل جداً، ولا يمثل شيئاً، ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهليّ"^(١).

ولا شك عندي أن النتيجة التي انتهى إليها طه حسين في دراسته عن الشعر الجاهليّ جعلته يتعرض لهجوم شرس، ونقد لاذع صدر في معظمه من علماء ومفكري عصره التقليديين الذين لا يتبنون العقلانية مذهباً لهم، بل استسلموا لآراء السابقين من دون نقد أو تمحيص لها، وانتهوا إلى النتائج نفسها التي انتهى إليها أسلافهم؛ لذلك طالب طه حسين من الذين لا يستطيعون أن يبرأوا من التأثر بالقديم، ويخلصوا أنفسهم من أغلال العواطف والأهواء حين يقرأون العلم، أو يكتبون فيه ألا يقرأوا هذه الدراسة التي يعدها عن الشعر الجاهليّ، إذ إنها لن تفيدهم قراءتها، إلا إذا كانوا أحراراً حقاً من سلطة القديم، والتأثر بالعواطف والأهواء"^(٢).

ولا شك في أن هذا المنهج الفكريّ المتحرر الذي اعتمد عليه طه حسين يُعد هو الوجه الآخر للعقلانية، ويؤكد الدكتور فؤاد ذكريا ذلك؛ إذ يرى أن تلك الواجهة للعقلانية عند طه حسين هي التي دافع عنها دفاعاً مباشراً في دراسته عن الشعر الجاهلي، ودفاعاً غير مباشر يتمثل في نوع النماذج التي اختارها موضوعاً لدراسته؛ إذ إن اهتمامه بأبي العلاء، وابن خلدون، والخوارج، وديكارت، يدل على التزام أصيل بعقلانية التفكير"^(٣).

ولذلك لم تكن الأفكار الديكارتية التي عرفها طه حسين في فرنسا بعيدة عن التراث الاعتزاليّ الذي عرفه طه حسين من كتب الجاحظ الذي كان له مكانة خاصة

(١) طه حسين في الشعر الجاهليّ، ص ١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣) فؤاد ذكريا: قيم النهضة الفكرية عند طه حسين، مقالة منشورة في مجلة الآداب، العدد ٣، لبنان، مارس

١٩٧٤م، ص ١٠.

في وعيه بتراثه، فقد كان الجاحظ يؤمن بالشك سبيلاً إلى اليقين على طريقة أستاذه إبراهيم السيار النّظام الذي كان يقول: لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك^(١).

ومن وجهة نظري أرى أننا قد نتفق أو نختلف مع النتائج التي توصل إليها طه حسين، ولا سيما في دراسته عن الشعر الجاهليّ، ولكن بطبيعة الحال ليس هناك اختلاف بيننا حول أهمية العقلانية بوصفه منهجاً يصلح للتطبيق في كل مناحي الحياة: العلمية، والفلسفية، والأدبية، والفنية، والاجتماعية؛ لما له من قيمة كبيرة دافعة إلى تحرير العقل من سلطة الأهواء، والتأثر بالعواطف، والآراء السابقة؛ لذلك أتفق مع طه حسين في ضرورة استعمال العقلانية بوصفها منهجاً عام في كل مناحي الحياة، وبوصفها أسلوباً للتربية؛ إذ إن العقلانية بما تفرضه على العقل من شك، ونقد، وتمحيص، مع عدم الخضوع لسلطة القدماء، بهدف الوصول إلى الحقيقة، واليقين، وهذا أحد أهم الأسس التي تركز عليها الفلسفة التربوية عامة، وفلسفة طه حسين خاصة.

ويرى الدكتور "حسين عليّ" إن فكر طه حسين وممارسته المنهج العقلانيّ التنويريّ، إنما يشكل إرثاً لا غنى عنه لكل التيارات الفكرية العربية المعاصرة؛ فقد أراد أن يدمج التراث العربي بالتراث العالمي، وأن يُخضع الأدب العربيّ وتاريخه لقوانين المنهج العقلانيّ، كما سعى إلى فتح حوار مؤسس على وعي مطابق لواقعه بمختلف

(١) جابر عصفور: مقالة بعنوان "رؤى نقدية لفكر طه حسين" النسخة الإلكترونية من جريدة الأهرام، بتاريخ

١٦ نوفمبر ٢٠١٨ السنة ١٤٣ العدد ٤٨١٩٢ متاح في

<https://gate.ahram.org.eg/daily/News/202833/4/680288/%D9%82%D8%B6%D8%A7%D9%8A%D8%A7-%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%A1/%D8%B1%D8%A4%D9%89%D9%86%D9%82%D8%AF%D9%8A%D8%A9%D9%81%D9%83%D8%B1-%D8%B7%D9%87-%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86.aspx>

تياراته الفكرية، مستهدفاً الوصول إلى ديمقراطية تعددية في مجالات التعليم والفكر، مدافعاً عن حقوق الإنسان، وإحياء المجتمع المدني، إذ أدرك عميد الأدب العربي أن اصطناع المنهج العقلي العلمي في كل مناحي حياتنا هو مطلب ضروري- أو هكذا يجب أن يكون- لكل تيارات الفكر العربي؛ لنتمكن المجتمعات العربية من تخطي حالة التخلف المتمثلة في الفقر والجهل والمرض، واستشراف مستقبل أفضل^(١).

وإذا كانت العقلانية أحد أهم الأسس التي تقوم عليها الفلسفة التربوية عند طه حسين؛ فإنه يرى أن الحرية والديمقراطية تعد الأساس الثاني لها.

٢- التربية لن تؤتي ثمارها إلا بالديمقراطية والحرية

يؤمن طه حسين بأن أي فلسفة تربوية يجب أن تقوم على أساس من الديمقراطية والحرية؛ إذ إن تربية شباب قادر على حماية أرض وثورات الوطن، وقادر على صنع الحضارة، وتحقيق التقدم لا تتم إلا في وجود الحرية، تلك الحرية التي لا يكتمل وجودها- وإن نصت عليها دساتير الدول- إلا بالثقافة والعلم؛ إذ إنهما الأساس الذي تقوم عليه أي حضارة، ومن غير الثقافة والعلم لا تُجدي الحرية نفعاً، ولا تغني عنها شيئاً، ولا تعصمها من أن تعتدي عليها الدول الأخرى^(٢).

ونلاحظ أن الربط بين تحقيق التربية المرجوة والديمقراطية والحرية كان حاضراً لدى الكثير من مفكري الإسلام في العصر الحديث والمعاصر، فعلى سبيل المثال: نجد عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٣م) الذي يرى أنه إذا كانت التربية تنمي الاستعداد الفطري لدى الإنسان للخير أو الشر، فإن الاستعداد لقبول التربية نفسها لا يكون إلا في

(١) حسين علي: مقالة منشورة على شبكة الإنترنت بعنوان "النزعة النقدية عند طه حسين" بتاريخ ١٢

فبراير ٢٠٢٠م متاحة في: albwabnews.com/writer/478

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، ط/٢، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٥.

المجتمعات الحرة، أما المجتمعات التي يسودها الاستبداد فهي أبعد ما تكون عن قبول التربية^(١).

وحجة الكواكبي في ذلك أن في المجتمعات المستبدة يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتحايل، والخداع، والنفاق، والتذلل، وإلى مراغمة الحس، وإماتة النفس، ونبد الجد، وترك العمل...؛ وينتج عن ذلك ما يسمى الاستبداد المشؤوم كما يطلق عليه الكواكبي الذي يتولى بطبعه تربية الناس على هذه الخصال الملعونة؛ وعليه يرى الآباء أن تعبهم في تربية الأبناء التربية الأولى على غير ذلك لابد من أن يذهب عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد^(٢).

فالكواكبي إذاً يرى أن التربية لا تؤتي أكلها الطيبة إلا مع الحرية؛ أما الاستبداد فإنه يجعل التربية كالنبت الشيطاني لا يأتي إلا بكل قبيح وشرير.

ولا تتحقق الحرية - من وجهة نظر طه حسين والتي أنفق معها - إلا بالاستقلال السياسي، والعلمي، والفني، والأدبي، إذ إن تلك الحرية هي وحدها القادرة على بناء شباب قادر على حماية الوطن، وأرضه، وثرواته، وأيضاً عن طريق هذه الحرية يتحقق الاستقلال النفسي، الذي يغرس في نفوس الشباب أنهم أنداد لنظرائهم الأوربيين الذين سبقوهم إلى التقدم؛ فهم لا يقلون عنهم في شيء، وبذلك تتحقق الحرية الداخلية وقوامها النظام الديمقراطي، والخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح، مع بناء التعليم على أساس متين، والأخذ بأسباب الحضارة الأوربية وهما القوة التي تحمي هذا الاستقلال^(٣).

وقد أدرك طه حسين أهمية وجود الحرية بوصفها أساساً لبناء الفرد والمجتمع، بدليل أنه كان يتحسر عليها عند استشعاره بنقصها أو فقدانها إذ يقول: " كنا في تلك

(١) الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارح الاستعباد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٩٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص ٤١-٤٢.

العهد أحراراً ففكر ونقول كما نريد أن نفكر ونقول، كنا نلقي ألواناً من المقاومة، فلا تزيدنا إلا طموحاً إلى الحرية وإمعاناً فيها، وكنا ننظر إلى الجهاد في سبيل الرأي وحرية الرأي على أنه حاجة من حاجات الحياة، وضرورة من ضرورات الوجود الحر^(١).

وأنتق في الرأي مع ما يراه طه حسين من أن الديمقراطية لا تتفق مع الجهل، وإلا كانت قائمة على الكذب والخداع، وكذلك الحياة النيابية لا تتفق مع الجهل، وإلا كانت عبثاً وتضليلاً؛ لذلك يقول طه حسين: إن الذين يريدون أن تصير أمور الشعب إلى الشعب يريدون بطبيعة الحال أن يتقف الشعب حتى يرشد، وحتى يأخذ أموره بحزم وقوة، ويصرفها عن فهم وبصيرة، وحتى يصبح بمأمن عن تضليل المضللين له، وتغفل المتغفلين إياه، ولا يستجيب لكل ناعق، ولا ينخدع لكل مخادع، ولا يدفع إلى الشر كلما أريد دفعه إلى الشر، ولا يتخذ أداة؛ لتحقيق أغراض الطامعين، وإرضاء شهوات الساسة، الذين كثيراً ما يتخذون الشعب الجاهل الغافل مطية إلى كثير من الجرائم والآثام^(٢).

ويرى طه حسين أن الشعب هو سيد نفسه، وهو مصدر السلطات جميعاً، لذلك لا ينبغي للقانون أن يفرق بين أبناء الشعب، وأن يتيح لبعضهم من أسباب الرقي ووسائل الامتياز والطموح إلى الكمال ما يحظره على بعضهم الآخر، وإنه لمن العبث أن يقال: إن الشعب مصدر السلطات، وأن يظن أن هذا الكلام يدل على شيء في بلد فيه كثرة جاهلة غافلة، وقلة ذكية مثقفة^(٣).

ويرى الدكتور كمال حامد مغيث - والذي أتفق معه في الرأي - أن اهتمام طه حسين بالديمقراطية وبال دستور، يرجع إلى تأثره بالديمقراطية اليونانية، وفلسفة أرسطو،

(١) طه حسين: من بعيد، نشرة الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، من دون تاريخ، ص ٦-٧.

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص ٩٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٣-٩٤.

واعتبار الدولة المثالية هي الدولة التي تقوم على الحكم الدستوري لا الاستبدادي، ولذلك اتجهت دعوته إلى تحقيق النظام الذي آمن به، وهو نظام الحكم الديمقراطي في الدستور، ولا سيما في أثينا؛ إذ كانت الحياة العامة في أثينا متأثرة بالنظام الديمقراطي الذي يقوي من حرية الفرد^(١).

وقد بين طه حسين مثالب حكم الأقلية المطلق من خلال الترجمة التي قام بها لكتاب من أهم كتب أرسطو السياسية وهو كتاب (نظام الأثينيين)؛ إذ يقول: كان نظام الحكم في ذلك الوقت نظام الأقلية المطلقة، وكان مكان الفقراء من الأغنياء هو مكان الخادم الذليل؛ إذ كانت الأرض كلها بيد طائفة قليلة من الناس، وكان الزراع إذا قصرُوا عن دفع ما يجب عليهم فإنهم قد يباعون هم وأطفالهم؛ إذ كان المدين خاضعاً للقهر البدني، وبقي الأمر على ذلك إلى عصر " سولون" أول رئيس للحزب الديمقراطي، إذ إنه أحدث نظام الاقتراع لاختيار عمال الحكومة، وشرع قوانين جديدة تلغي حق الدائن من إخضاع المدين لأنواع القهر البدني^(٢).

وأرى أن إيمان طه حسن بالديمقراطية والحرية بوصفها أساساً للحياة وللتربية، ليس راجعاً إلى تأثيره بالنظام الأثيني فقط، بل يضاف إليه كذلك تأثره بالفترة التي عاشها في فرنسا أثناء دراسته هناك، وما أطلع عليه من أفكار ذات صلة بالحرية والديمقراطية، النابعة من قيم الثورة الفرنسية نفسها.

وإذا كانت الديمقراطية عند طه حسين ركناً أساسياً للدولة الحديثة، فإن التعليم الأولي هو ركن أساسي من أركان الحياة الديمقراطية الصحيحة، بل أكثر من ذلك، هو ركن أساسي من أركان الحياة الاجتماعية نفسها مهما يكن نظام الحكم الذي تخضع له،

(١) كمال حامد مغيث: طه حسين مصادره الفكرية- العدالة الاجتماعية الديمقراطية- الحرية الأكاديمية- الفكر التربوي- الهوية الثقافية، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، ط/١، القاهرة، ١٩٩٧م، ص

(٢) طه حسين: ترجمة كتاب نظام الأثينيين لأرسطو، دار المعارف، مصر، ١٩٢٨م، ص ٤٤-٥٩.

فالنظام الديمقراطيّ الصحيح يجب أن يكفل لأبناء الشعب جميعاً: الحياة، والحرية، والسلم^(١).

أ- الحياة

يرى طه حسين أن الحياة التي يجب أن تكفلها الديمقراطية للناس، إنما هي الحياة القابلة للتطور والرقي من ناحيتها المادية، ومن ناحيتها المعنوية؛ إذ يجب أن تضمن الديمقراطية للناس ما يقيم أودهم، ويعصمهم من عادة الجوع، كما يجب أن تضمن لهم مع ذلك القدرة على أن يصلحوا أمرهم، ويتجاوزوا ما يقيم الأود إلى ما يتيح الاستمتاع بما أباح الله للناس من لذة ونعيم في هذه الحياة، ولا يكون ذلك إلا عن طريق التعليم الذي يمكن الفرد من أن يعرف نفسه، وبيئته الطبيعية والوطنية والإنسانية، وأن يتزود من هذه المعرفة، وأن يلائم بين حاجته وطاقته وما يحيط به من البيئات والظروف^(٢).

ب- الحرية

يرى طه حسين أنه إذا كانت الديمقراطية مكلفةً أن تضمن للأفراد الحرية كما ضمنت لهم الحياة، فإن الحرية لا تستقيم مع الجهل، ولا تعايش الغفلة والغباء؛ إذ إن الدعامة الصحيحة للحرية الصحيحة إنما هي التعليم الذي يشعر الفرد بواجبه وحقه، وواجبات نظرائه وحقوقهم؛ فالتعليم يزيد حالة الوعي الذاتي والجماعي، ويكون هناك شعوراً بالتضامن الاجتماعي بين أفرادهم، هذا الشعور يجعل الأفراد حريصين على احترام حقوق نظرائهم عليهم، ويحترم نظراؤهم حقوقه عليهم^(٣).

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص ٦٥.

(٢) المصدر السابق، ٦٥-٦٦.

(٣) طه حسين، المصدر السابق، ص ٦٧.

فالديمقراطية والحرية إذاً هما من أسس الفلسفة التربوية عند طه حسين، وجدير بالذكر أن الديمقراطية والحرية وجهان لعملة واحدة، إذ إن الحرية لا تمارس إلا في وجود الديمقراطية، كما أن الديمقراطية لا تمارس إلا في وجود الحرية، وقد أوضح طه حسين تلك العلاقة الوثيقة بين الديمقراطية والحرية في كثير من مؤلفاته، إما صراحة؛ إذ يصر في أكثر من مناسبة على أن الدستور قد كفل الديمقراطية والحرية، ونص عليهما ضمن نصوصه، وإما ضمناً عن طريق تأكيده على مزايا كل من الديمقراطية والحرية؛ من أجل التعلم والرفق والتقدم.

ج- السلم

الديمقراطية كذلك مكافئة أن تضمن للناس السلم، بأن تحميهم من أن يعدو بعضهم على بعض في داخل وطنهم، وأن تحميهم من أن يعدو عليهم الأجنبي، وهذا السلم لا يوجد إلا بوجود المواطنين الأحرار؛ إذ إن الرجل الذي لا حظ له من الحرية هو عاجز بطبعه عن إيجاد السلم وحمايته، بل عاجز بطبعه عن تصور السلم، وإنما هو قادر على أن يعيش ذليلاً، وعلى أن يكون عادياً باغياً إن أتيحت له فرصة البغي والعدوان^(١).

وينتهي طه حسين من ذلك إلى أن الديمقراطية لن تستطيع أن تكفل للناس حياة ولا حرية ولا سلاماً، إلا إذا كفلت لهم تعليماً يتيح لهم الحياة ويبيح لهم الحرية، ويمكنهم من السلم، وكذلك يجب على الدولة الديمقراطية تعميم التعليم الأولي، وأخذ الناس جميعاً به طوعاً وكرهاً؛ إذ إن الدولة الديمقراطية ملزمة أن تنتشر التعليم الأولي وذلك لعدة أغراض منها^(٢):-

(١) المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٨-٦٩.

١- هذا التعليم الأولي يُعد أيسر وسيلة يجب أن تكون في يد الفرد؛ ليستطيع أن يعيش.

٢- هذا التعليم الأولي يُعد أيسر وسيلة يجب أن تكون في يد الدولة نفسها؛ لتكوين الوحدة الوطنية، وإشعار الأمة حقها في الوجود المستقل الحر، وواجبها للدفاع عن هذا الوجود.

٣- هذا التعليم الأولي هو الوسيلة الوحيدة في يد الدولة؛ لتمكين الأمة من البقاء والاستمرار؛ لأنها بهذا تضمن وحدة التراث الوطني اليسير الذي يجب أن تنتقله الأجيال من جيل إلى جيل، وأن يشترك في تلقفه ونقله الأفراد جميعاً في كل جيل.

ويرى طه حسين أن هذا التعليم الأولي الذي يمكن الفرد من أن يعرف نفسه وبيئته الطبيعية والوطنية، يجب أن يلائم بين حاجاته وبين هذه البيئة الطبيعية والوطنية؛ إذ إن الفرد محتاج قبل كل شيء إلى أن يقرأ، ويكتب، ويحسب، وبعد ذلك لا بد من أن يتعلم مبادئ اللغة، والتاريخ، والجغرافيا، والتربية البدنية، والأخلاق، والدين^(١).

إذ لابد من أن يتعلم أفراد كل أمة لغة وطنهم حتى يتمكن أفرادها من أن يفهم بعضهم بعضاً، ويفضي بعضهم إلى بعض بذات نفسه ودخيلة ضميره، بأيسر حاجاته وأعسرهما، كذلك لابد أن يعرف الأفراد حال الأمة وحاضرها ونظمها القائمة من تاريخها، حتى يشعر بآمالها، ويتصور مستقبلها على وجه ما، وكذلك يجب أن يعرف جغرافية الأمة وحدودها، حتى يستطيع حمايتها ضد أي عدوان، كما أن الدولة ليست مسئولة عن تكوين عقل الصبي وقلبه فقط، بل لابد من أن يكون التعليم الأولي مكاناً ممتازاً للتربية البدنية يضمن للأمة تكوين أجيال صحيحة الأجسام والعقول معاً، أما الدين فإن طه حسين يرى أن الدولة إن رأت إقامة التعليم على فكرة المدنية الخالصة،

(١) المصدر السابق، ص ٦٨-٦٩.

تركزت أمر الدين إلى الأسرة، ولم تقم في سبيل تعليمه المصاعب والعقبات، وإن رأته إقامته على فكرة المدنية الدينية، قسمت لهذا التعليم الديني مكانه من هذا البرنامج التعليمي^(١).

وإذا كان التعليم الأولي ركناً أساسياً من أركان الديمقراطية تمكن الفرد من معرفة نفسه ووطنه وبيئته المحيطة به، فلا يمكن للديمقراطية أن تمنح الأفراد كل ما يحتاجون إليه أو يقدرون عليه من هذه الوسيلة، ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن الديمقراطية ملزمة أن تمنح الأفراد حظاً يسيراً من هذه الوسيلة لا سبيل إلى العيش من دونه في أي بيئة متحضرة^(٢).

ويرى طه حسين أنه يجب على الشعب أن يتعلم إلى أقصى حدود التعليم، إذ إن في ذلك وحده الوسيلة إلى أن يعرف الشعب مواضع الظلم، وإلى أن يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلونه ويستأثرون بثمرات عمله وجده، فيردهم إلى الإنصاف والعدل، ويضطرهم إلى أن يؤمنوا بالمساواة قولاً وعملاً، وإلى أن يحققوا المساواة في سيرتهم لا في هذه الألفاظ الجوفاء التي يضللون الناس بها^(٣).

والحق أن وجود فلسفة تربوية تقوم على أساس من الديمقراطية والحرية لم يكن هدف طه حسين فقط، بل كان هدفاً لكثير من الباحثين الذين كان لديهم مشروع حضاري؛ من أجل النهضة، إذ إن الديمقراطية والحرية بوصفهما حالتين لقيام كيان سليم يواجه حالات الاستبداد، تم ربطهما بمفهوم العدالة الاجتماعية الذي يواجه حالات الظلم، ودفع الاستغلال طبقياً كان أم اقتصادياً^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ٦٦-٦٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٥.

(٤) ماجد السامرائي: الثقافة والحرية "قراءة في فكر طه حسين"، الأهالي، ط/١، دمشق، ١٩٩٦م، ص ١٥.

وإذا كان طه حسين قد أقام دعائم فلسفته التربوية على أساس من العقلانية والحرية فإنه يمكن القول: إن العقلانية والحرية هما أهم ما يميز الفكر العربي الحديث عامة، وكل منهما يكمل الآخر؛ إذ يجب على الإنسان الذي تحرر من قيود الجهل والوهم والخرافة أن يحتكم إلى العقل من دون نزوة أو هوى، حتى لا يقع في خرافة أخرى^(١)، وهذا ما فعله طه حسين، بالإضافة إلى أنه كان لديه مشروع فكري يكاد يكون كاملاً؛ من أجل إصلاح التعليم.

٣- التربية وإصلاح التعليم

أولى طه حسين أهمية كبيرة بموضوع التعليم وإصلاح سبُلِهِ بوصفها ركيزة أساسية تقوم عليها فلسفته التربوية، إذ يقول: إذا تعلم أبناء الشعب عرفوا ما لهم من حق في حياتهم الداخلية؛ فلم يسمحوا لقلّة مهما تكن أن تظلم الكثرة، وعرفوا ما لهم من حق في حياتهم الخارجية؛ فلم يسمحوا لدولة مهما تكن أن تظلم وطنهم أو تستنذله، والتعليم إذا كان صحيحاً مستقيماً الأساليب، هو وحده الذي يضمن للمصريين العدل، والمساواة فيما بينهم وبين أنفسهم، والعزة والكرامة فيما بينهم وبين الآخرين^(٢).

ويتحدث طه حسين عن أهمية التعليم لتربية الإنسان فيقول: التعليم غذاء للشعب لا يستطيع أن يعيش من دونه، كما أن الطعام والشراب غذاء للشعب لا يستطيع أن يعيش من دونه، مع ذلك فالطعام والشراب وكل ما يتصل بحياة الجسم من العناية بشئون الصحة العامة ضرورة لازمة؛ لتمكين الشعب من حياته الحيوانية التي يشارك فيها الحيوانات الأخرى، بينما التعليم ضرورة لازمة؛ لتمكين الشعب من أن

(١) زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، دار الشروق، ط/٤، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٥-٦. أيضاً: عزمي زكريا أبو العزم: الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار المسيرة، ط/١، عمان الأردن، ٢٠١٢م، ص ١٣٠-١٣١.

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص ٩٦.

يكون إنساناً ممتازاً عن هذه الحيوانات مسيطراً عليها وعلى غيرها من عناصر الطبيعة في البر، والبحر، والجو، والماء أيضاً^(١).

ويرى طه حسين أن الشرق العربي إذا احتاج إلى شيء ليصل به إلى ما يصبو إليه من نهضة، فهو يحتاج إلى تعليم صالح معتمد على قواعد صحيحة ملائمة لنفسيته، وعاداته، وآماله، وأطواره المختلفة^(٢).

وفي سبيل النهوض بالتعليم قام طه حسين بوضع تصور يكاد يكون شاملاً، لإصلاح التعليم في مصر من دون أن يعني منذ البداية بتوضيح انتمائه الفكري إلى هذه المدرسة أو تلك من المدارس الفلسفية، التي تعكس كل منها نظرية تربوية خاصة^(٣).

فقد بحث طه حسين في سبيل تربية الأطفال وتعليمهم تعليماً صالحاً عن طريق إصلاح التعليم الذي يُعد دعامة أساسية لوضع فلسفة تربوية صحيحة، بل إن البرامج التعليمية التي تضعها الدولة، والمناهج الدراسية المكتوبة التي تقررها ليسا غاية في ذاتهما، وإنما الغاية تكوين الأطفال لاسيما في مرحلة التعليم الأولي تكويناً صالحاً لنموهم، حتى يكونوا في المستقبل شباباً قادراً نافعاً لنفسه ولوطنه^(٤).

وقد وضع طه حسين تصوراً شاملاً؛ لإصلاح التعليم في مراحل المختلفة، تبدأ من مرحلة التعليم الأولي، ثم الثانوي، ثم الجامعي.

(١) المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٢) غوستاف لوبون: روح التربية، ترجمة طه حسين، مقدمة الكتاب بقلم طه حسين، مؤسسة هنداوي،

القاهرة، ٢٠١٣م طبعة رقمية، ص ٧.

(٣) كمال حامد مغيث: طه حسين، ص ١٢٥.

(٤) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ٧٠.

أ- إصلاح التعليم في مرحلة التعليم الأولي

وتقوم فلسفة طه حسين التربوية في هذه المرحلة على عدة مبادئ منها: تحديد العلوم التي يجب أن يتعلمها الطفل في هذه المرحلة الأولية، كما يجب الاهتمام بإعداد المعلم إعداداً جيداً، وتحديد من يقوم بالإشراف على التعليم في تلك المرحلة.

١- المواد الأساسية التي يجب على الطفل تعلمها

يقرر طه حسين أن تعليم الأطفال في مرحلة التعليم الأولي لا يجب أن يقتصر على تعليم الأطفال القراءة والكتابة وأوليات الحساب فقط؛ إذ إن الطفل الذي يلم بالقراءة والكتابة والحساب، ثم يدفع إلى ميادين الحياة العملية من دون أن يمضي في فرع آخر من فروع التعلم، يكون بين أمرين، إما أن تشغله الحياة وصرورها عما تعلم فينساه ويرتد جاهلاً كما كان، وإما أن يستبقي علمه بالقراءة والكتابة، ويقراً كل ما يقع إليه بصره، وينطبع في عقله صورة ما يقرأه من دون تمييز ولا اختيار فينشأ ضعيف العقل فاسد الرأي، مشوه الفكر عاجزاً عن الفهم والحكم، مستعداً للتأثر بكل ما يلقي إليه من دون تمييز^(١)؛ لذلك يجب أن يتعلم الطفل في هذه المرحلة بالإضافة إلى الكتابة والقراءة وأوليات الحساب، التاريخ، والجغرافيا، والدين، واللغة، والتربية البدنية، إذ إن هدف التعليم في هذه المرحلة هو أن يعرف الطفل نفسه، وبيئته الطبيعية، والوطنية، والإنسانية، وأن يتزود من هذه المعرفة، وأن يلائم بين حاجته وطاقته وما يحيط به من البيئات والظروف^(٢). مع مراعاة ضرورة البدء بتعليم الطفل في هذه المرحلة أعم القواعد

(١) المصدر السابق، ٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦.

وأسهلها في كل علم من العلوم السالف ذكرها، ويتدرج به إلى أن يصل إلى معارف أصعب وأكثر تعقيداً^(١).

٢- إعداد المعلم الجيد

يرى طه حسين أن التعليم لا يستقيم أمره إلا إذا نهض به المعلم الكفاء؛ إذ إن المعلم ولا سيما في المرحلة الابتدائية هو أمين على أبناء الشعب، ومسئول عن هذه الأمانة أمام الشعب من جهة، وأمام الدولة من جهة أخرى، ومسئول أمام الشعب؛ لأن الآباء والأمهات حينما يرسلون أبناءهم إلى المدرسة انتظروا أن يخرجوا منها وقد تمت أجسامهم وعقولهم، وصفت قلوبهم، واستقامت أخلاقهم، وهو مسئول أمام الدولة؛ لأنها حين دفعت إليه أبناء الشعب قد كلفته أن يهيئهم؛ ليكونوا أعضاء صالحين مصلحين في البيئة التي يعيشون فيها، قادرين على حماية وطنهم وإقرار الأمن والعدل فيه، وتمكينه من الرقي والتقدم^(٢).

ولذلك يلزم على الدولة:

أ- أن تهيئ المعلم تهيئةً صالحة، بإعداد المدارس والمعاهد من الناحية المادية المتمثلة في المنشآت التي تخرج للتعليم الأولي رجاله، والمعنوية المتمثلة في المعاملة الحسنة للمعلم في هذه المرحلة؛ إذ يجب أن تكون مدارس المعلمين صالحة كأحسن ما يكون الصلاح في ناحيتها المادية والمعنوية حتى تخرج معلماً يشعر بالعزة والكرامة، تَشْرَبُ في قلبه الحرية والاستقلال، حتى يمكن له أن يبث تلك المبادئ في نفوس الأطفال التي سوف يقوم بتعليمهم؛ لأن الرجل الذليل المهين لا يستطيع أن ينتج إلا ذلاً

(١) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية " تحليل ونقد"، نقله إلى العربية، محمد عبد الله عنان، لجنة

التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٢٥م، ص ١٦٢.

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص ٧١.

وهواناً، كما أن الرجل الذي نشأ على الخنوع والاستعباد لا يمكن أن ينتج حرية واستقلال^(١).

ب- يجب تقديم التعليم المناسب لإعداد هؤلاء المعلمين، ولا سيما في مرحلة التعليم الأولي، والذي يجب أن يشمل بعض فروع العلوم كالتاريخ، والجغرافيا، واللغة، والدين؛ إذ كيف يقوم المعلم بتدريس هذه العلوم للأطفال في التعليم الأولي هو نفسه يجهلها.

ج- يشترط أن يكون المتعلم في تلك المدارس والمعاهد التي تعدهم للقيام بمهمة التدريس للأطفال في المرحلة الأولية أن يكون حاصلاً على شهادة الثانوية؛ ليحصل على مقدار صالح من الثقافة العامة أولاً، ثم يفرغ بعد ذلك للدراسة في مدرسة إعداد المعلمين لشئون التربية والتعليم عامين أو ثلاثة أعوام، بل يجب أن يكون المتخرج في الجامعة هو القائم على مهمة النهوض بأعباء التعليم في المرحلة الأولية، وهذا هو المتعارف إليه من أصول التربية التي تتصل بحياة الطفل وتنشأته في الديمقراطيات الحديثة^(٢).

٣- الإشراف على التعليم ولاسيما الأولي

يرى طه حسين أنه يجب أن يُنسب مهمة الإشراف على التعليم، ولا سيما الأولي إلى صفوة الأمة وخلصاة النابهين من علمائها وقادة الرأي فيها؛ إذ إنهم هم الذين تتسع عقولهم لا لفهم التطور الحادث في المجتمع فقط، بل لفهم التطور العام الذي تخضع له الحضارة الإنسانية كلها، كما أن الخطر على التعليم الأولي من جهل المشرفين عليه كبير إذ لم يكن مديروه ومديرو أمره من الكفاءة وسعة العقول بحيث

(١) المصدر السابق، ص ٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٣.

ينبغي، لذلك يجب على الدولة أن تبذل ما تملك من جهد في اختيار الذين تكل إليهم إدارة هذا التعليم^(١). وبنبه طه حسين إلى أهمية عدم ازدحام المدارس بالتلاميذ؛ لأن ذلك يضعف العناية بهم؛ إذ إن ازدحام المدارس بالطلاب يحول بين النظار وبين المراقبة.

ونلاحظ أنه حينما يتحدث طه حسين عن دور الدولة في السيطرة على التعليم، يتضح أثر الثقافة الفرنسية في ذلك، إذ إن فرنسا تدين بمبدأ سيطرة الدولة على كل شؤون التعليم^(٢)

ب- إصلاح التعليم الثانوي

تبدأ هذه المرحلة بعد أن يتم الطالب تعليمه الأولي، وينتهي حين يظفر الطالب بالإجازة التي تتيح له دخول الجامعة، ويرى طه حسين أن واقع الأمر لا يتفق مع ذلك النظام، ولا بد من تغيير هذا الواقع، حتى يكون هناك تلاؤم بين هذا النظام ومنطق الأشياء، والسبب في ذلك أن حامل شهادة الثانوية العامة يدخل الجامعة لا ليتصل فيها بالتعليم العالي، بل ليتم تعليمه الثانوي أولاً، ثم يأخذ في التعليم العالي بعد ذلك، إذ إن الطلاب يصلون إلى الجامعة ولمّا يبلغوا حظاً معقولاً من الثقافة الثانوية، ولم يهيئوا تهيئة حسنة لتلقي الدروس العالية، والأخذ في البحث المنتج الخصب^(٣).

لذلك يقترح طه حسين أن تؤخذ من كليات الجامعة سنة تضاف إلى التعليم الثانوي، وأن يضم إليه التعليم الابتدائي، فيتحقق من هذا كله شطر من الحياة التعليمية للأطفال والشباب يتألف من عشر سنوات وهي التي تخصصها للتعليم العام، وهي التي

(١) المصدر السابق، ص ٨٠-٨٢.

(٢) كمل حامد مغيث: طه حسين، ص ١٥٣.

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص ٨٥.

يستطيع الشباب بعدها أن يدخل الجامعة أو أن يلتمس لنفسه ما أحب وما استطاع من سُبُل العيش^(١).

ويرى طه حسين أنه لا بد من أن يعاد النظر في برامج التعليم العام من هذه الناحية الخاصة، فنأخذه على أنه وحدة لا تنقسم ولا ينفصل بعضها عن بعض، أولها البدء بتعلم الكتابة والقراءة وآخرها الظفر بالشهادة الثانوية، وفيما بين ذلك البدء وهذه الغاية تقسم البرامج والمناهج تقسيماً يعتمد على ما توصى به علوم التربية من مراعاة طاقة الصبي واستعداده ونموه الجسمي وتطوره العقلي والخُلقي^(٢).

١- المواد الدراسية التي يجب أن تدرس في تلك المرحلة

يرى طه حسين أن طبيعة هذا التعليم العام تختلف عن طبيعة التعليم الأولي، إذ ليس الغرض من التعليم العام الثانوي هو تزويد الفرد بما لا بد منه؛ ليعيش في أمة متحضرة كما هو الحال في التعليم الأولي، ولكنه يتجاوز هذا الغرض إلى شيء أرقى من ذلك وأسمى؛ إذ إنه يرتقي في الثقافة إلى حيث يبلغ المعرفة من حيث هي، وإلى حيث يقصد به إلى توسيع العقل وتغذيته بألوان مختلفة من العلم الإنساني قد لا يحتاج إليها الفرد من عامة الناس، مثل: معرفة قدر من علوم الطبيعة، والرياضة، والكيمياء، وعلوم الحياة، وتاريخ أوروبا وأمريكا، ولغة أو لغتين أجنبيتين^(٣).

٢- تكلفة التعليم الثانوي

يرى طه حسين أن ميزانية الدولة لا تستطيع أن تنهض وحدها بنفقات هذا التعليم العام، ويجب على الأسر التي ترسل أبناءها إليه أن تتحمل شيئاً من هذه النفقات، لذلك فإن هذا التعليم العام لن يكون إلزامياً؛ لأنه لا يتجه ولا يستطيع ولا يجب

(١) المصدر السابق، ص ٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٦.

أن يتجه إليه أبناء الشعب جميعاً، ما دام هذا التعليم ليس إلزامياً فلن يقدم إلى التلاميذ مجاناً، ولكن ذلك قد يجني على حق الفقراء في تعليم أبنائهم، والحل - من وجهة نظر طه حسين - هو أن تأخذ الدولة من القادرين أجر هذا التعليم، وأن تحط ثقله عن العاجزين عن أدائه بشرط أن يثبت استعدادهم الجيد للانتفاع بهذا التعليم، ويكون ذلك عن طريق مسابقات دقيقة نقية مبرأة من العبث والمحاباة تعقد لهم في أثناء التعليم الأولي أو في آخره، كما هو الحال في الدول الديمقراطية المتقدمة^(١).

وتقوم فلسفة طه حسين التربوية فيما يتعلق بالتعليم العام على أن يكون التعليم العام مباحاً للناس جميعاً إذا استطاعوا أن يؤدوا أجره، فإن عجزوا عن ذلك مكنوا من تعليم أبنائهم بشرط أن يكونوا أهلاً للانتفاع به، ويشير طه حسين إلى خطورة أن يكون هذا التعليم الثانوي مباحاً للجميع مجاناً، وهو الأمر الذي فعلته بعض الدول مثل: فرنسا، إذ إن هذا المسلك الذي سلكته فرنسا وإن كان ملائماً للحق وملائماً لما ينبغي من البر بالفقراء، ولكنه لا يخلو من إسراف يتمثل في التكاليف الباهظة التي تنقل كاهل الدولة، كذلك هناك ضرر آخر يتمثل في اندفاع الناس إلى هذا التعليم بغير حساب، ومن ثم إقبال كثير من الأسر على إرسال أبنائها إلى مدارسها، من دون أن تتبين حسن استعدادهم؛ لتلقي هذا التعليم والانتفاع به والنجاح فيه^(٢).

وأرى أن طه حسين كان نافذ البصيرة بالتحذير من خطر أن يتاح التعليم العام لكل الناس مجاناً من دون أن يكون الطالب أهلاً للانتفاع بذلك النوع من التعليم، إذ إن واقع الحال يؤكد ما حذر منه طه حسين، حيث نجد ما تعاني منه الجامعات الآن من ضعف في مستوى معظم الطلاب المنتسبين إليها لأنهم كانوا غير مؤهلين للالتحاق بالتعليم الثانوي منذ البداية.

(١) المصدر السابق، ص ٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٠.

٣- دور الدولة في التعليم العام

أ- الإشراف والنصح والتوجيه

وتؤدي الدولة دوراً هاماً في الفلسفة التربوية عند طه حسين، إذ إن مهمة الدولة عنده لا تقتصر على إتاحة التعليم للشعب فقط، ولا في وضع البرامج والمناهج المناسبة لرفي الفرد والمجتمع فقط، ولا في الإشراف على تنفيذها فقط، بل يجب عليها كذلك أن تتصح الطلاب، وأن تقدم النصح والإرشاد، وكذلك للآباء في كيفية تربية أبنائهم وتعليمهم، عن طريق مراقبة هؤلاء الطلاب الذين يترددون على المدارس؛ من أجل التعليم مراقبة دقيقة متصلة متنوعة، تراقب أجسامهم، وعقولهم، وقلوبهم، وأخلاقهم، وكل ما ينتج عن هذا كله من الاستعداد لأنواع الثقافة وألوان العلوم، وهي بهذه المراقبة تجعل المدرسة معملاً تجريبياً للتربية، وترد لكلمة التربية معناها الصحيح، وتبرئ المعلم من أن يكون أداة لإفراغ العلم في عقل التلميذ، وتجعله مريباً للطلاب، ومرشداً لأسرته^(١).

وينبه طه حسين إلى أهمية عدم ازدحام المدارس بالطلاب؛ لأن ذلك يضعف العناية بهم؛ إذ إن ازدحام المدارس بالطلاب يحول بين النظار وبين المراقبة العادية لهم، ويحول بين المعلمين وبين الفراغ لطلابهم، وبينهم وما يستحقون من العناية في أثناء الدرس، وفي تصحيح الواجبات في كراساتهم، أي أن ازدحام المدارس بالطلاب يقف عقبة عسيرة أمام التعليم المنتج الصحيح^(٢).

ويرى طه حسين في فلسفته التربوية في مرحلة التعليم الثانوي كذلك أن في هذه المدارس يجب أن يتجه إلى الفرد لا إلى الجماعة، وإلى التلميذ لا إلى الفصل؛ لأن التلميذ في هذه المدارس لم يبلغ بعد من القوة والنضج أن يعتمد على نفسه اعتماداً

(١) المصدر السابق، ص ٩٩-١٠٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠١.

تاماً، وأن يستغني بجدّه الخاص عن تعهد المعلم له بالنصيحة والتقويم والإرشاد، إذ إن كثرة الطلاب في الفصل خطر عظيم على صلاح التعليم، وحائل عظيم من دون انتفاع الطالب به وفراغ المعلم له^(١).

وينبه طه حسين، إلى أنه إذا أصبح المعلم أداة، والمدرسة مصنعاً، والتلاميذ مادة، فقد التعليم والتربية أخص ما يحتاجان إليه من المقومات، وهو الحياة والحب والنشاط والطموح^(٢)، وفي ذلك الأمر يقول طه حسين: " ليس يرضينا أن يكون في المدرسة ألف من التلاميذ على حين أنها لا تستطيع أن تعلم تعليماً صالحاً إلا نصف الألف، وليس يرضينا أن تقبل هذه المدرسة نصف الألف وأن يرد النصف الآخر إلى البطالة والضياع. بل نريد ألا تقبل المدرسة من التلاميذ فوق طاقتها من جهة، وألا يرد طالب العلم عن العلم من جهة أخرى، نريد ألا تكلف المدارس فوق ما تُطيق، وأن تنشأ المدارس كلما كثر الإقبال على التعليم العام، واشتدت رغبة الناس فيه"^(٣).

ب- إنشاء مجلس أعلى للتعليم

يرى طه حسين أنه يجب إنشاء مجلس أعلى للتعليم على أن تمثل فيه فروع التعليم كلها، ومنها التعليم العالي (الجامعي)، كما يجب أن تمثل فيه عناصر ليست من وزارة المعارف، ولكنها تتصل بالتعليم من قرب أو من بعد وتستطيع أن تشير في أمره بالقيم من الآراء، على أن يكون أهم اختصاصات هذا المجلس أن يشير على الوزير في كل ما يقدم عليه من أمر خطير يمس أمر التعليم، وأن يؤلف من بين أعضائه لجنة دائمة تهيئ له أعماله من جهة، وتشير على الوزير في الحياة التعليمية اليومية من جهة أخرى، وعلى أن يكون هذا المجلس وحده هو المختص بتأديب

(١) المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٣، أيضاً مصطفى رجب: فكر طه حسين التربوي بين النظر والتطبيق، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٩١.

المعلمين، وهذا المجلس يضمن لسياسات التعليم الاستمرار والاتصال ويعصمها من التقلقل والاضطراب الذي يحدث بتغيير الوزراء^(١).

ج- إصلاح نظام الامتحانات

يرى طه حسين- الذي أتفق معه في الرأي- أن الأصل في الامتحان أنه وسيلة لا غاية، وأنه مقياس تعتمد عليه الدولة؛ لتجيز للشباب أن ينتقل من طور إلى طور من أطوار التعليم، وهو مستعد لهذا الانتقال استعداداً صحيحاً أو مقارباً. هذا هو الأصل، ولكن أخلاقنا التعليمية جرت على ما يناقض هذا أشد المناقضة، ففهمنا الامتحان على أنه غاية لا وسيلة، وأجرينا أمور التعليم كلها على هذا الفهم الخطأ السخيف، وأدعنا ذلك في نفوس الصبية والشباب، وفي نفوس الأسر حتى أصبح ذلك جزءاً من عقليتنا، وأصلاً من أصول تصورنا للأشياء وحكمنا عليها؛ إذ إن الأسر حين ترسل أبناءها إلى المدرسة تفكر في تعليمه من غير شك، ولكنها لا تفهم هذا التعليم إلا مقروناً بالامتحان الذي يدل على انتفاع الصبيّ به ونجاحه فيه، وهي من أجل ذلك تعيش معلقة بآخر العام، وبهذه الورقة التي ستأتيها من المدرسة أو من الوزارة؛ لتتبئها بأن أبنهم قد اجتاز الامتحان فنجح فيه أو أخفق فيه، ولا يكاد الطفل يبلغ المدرسة ويستقر فيها يوماً حتى يشعر بأن أمامه غاية يجب أن يبلغها، وهي أن يؤدي الامتحان وينجح فيه^(٢).

وإذا كان الحال كذلك فالطفل منذ أن يدخل المدرسة موجه إلى الامتحان أكثر مما هو موجه إلى العلم، مهياً للامتحان أكثر مما هو مهياً للحياة، وكذلك نجد أنه ليس المهم لدى الطفل أن ينتفع بالدرس، وأن يجد فيه اللذة والمتعة، وأن يستزيد منهما، بل المهم أن يستعد للامتحان وللنجاح فيه؛ ليتفوق على أترابه أو ليحتفظ بمكانته بينهم،

(١) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص ١١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٤. أيضاً مصطفى رجب: فكر طه حسين التربوي، ص ٩٤-٩٧.

وليرضى أبويه وبسرهما؛ ويحقق ما يعقدان به أمل، وينوطان به من رجاء؛ ليظفر بما يمنيانه من مكافأة وجزاء^(١).

وأتفق في الرأي مع ما يقوله طه حسين: من أن تصور الامتحان على هذا النحو قلب للأوضاع، وجعل التعليم وسيلة بعد أن كان غاية، وجعل الامتحان غاية بعد أن كان وسيلة، وهذا يُعد فساداً للتعليم، وللعقل، وللخلق أيضاً؛ إذ إن الطفل الذي ينشأ على اعتبار الوسائل غايات والغايات وسائل، سوف يفهم الأشياء فهماً مقلوباً، ويحكم عليها حكماً معكوساً، فلا يستطيع أن يفهم أموره الدراسية، ولا أمور الحياة فهماً صحيحاً، لكي يحكم عليها حكماً مستقيماً، إذ إن تفكيره معوج، وشعوره مختلط^(٢). وهذا ما نلاحظه بالفعل في واقعنا الآن إذ أصبح الهدف من التعليم هو اجتياز الامتحان بنجاح من أجل الحصول على الشهادة، وليس من أجل الانتفاع بالعلم نفسه في الحياة العلمية والعملية.

ويرى طه حسين أنه بانقلاب الامتحان إلى غاية بدلاً من أن يكون وسيلة له آثاره السلبية في الأخلاق أظهرها الغش، الذي يأتي من حرص التلميذ على أن ينجح بأي حال من الأحوال، وليس الغش هو الذي يقترف ويضبط في أثناء الامتحان فقط، بل هناك غش آخر أشد منه خطراً، غش خفي نحسه ولا نكاد ندل عليه، ولعل من أخلاقنا الدراسية أن نبيحه أحياناً، غش يشترك فيه المعلمون والمتعلمون حين يهيئ المعلمون تلاميذهم تهيئة خاصة لأداء الامتحان، وحين يقفون بهم فيطيلون الوقوف عند هذا الجزء أو ذاك من أجزاء البرنامج، وحين يعيدون معهم المقرر فيلحون عليهم في استذكار هذه المسألة أو تلك وحين يخضعونهم لامتحان التجربة، وحين ينشرون

(١) طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص ١٢٥.

(٢) المصدر السابق، ١٢٦.

لهم الكتب التي تشمل على نماذج للأسئلة التي يمكن أن تعرض في الامتحان، كل هذا غش يختلف قوة وضعفاً، ولكنه مفسد للتعليم، ومفسد للأخلاق أيضاً^(١).

لذلك نرى طه حسين يقول: إن نفس الأمة المصرية مريضة منذ كان الاحتلال البريطاني بمرض يفسد عليها حياتها كلها، ولن تستقل الحياة الخصبة المنتجة إلا إذا برئت من هذا المرض، وهو الاشتغال بالوسائل عن الغايات، وبالظواهر عن الحقائق، تلاحظ آيات هذا المرض في سيرتها كلها، سواء منها ما يتصل بحياتها العامة، وما يتصل بحياتها الخاصة، وسواء منها ما يتصل بالجد الذي يقصد به إلى الإنتاج، وما يتصل بالترفيه الذي يقصد به إلى الراحة والاستجمام^(٢).

د- التشجيع على القراءة الحرة

التشجيع على القراءة الحرة السمحة التي لا تنتقيد بمناهج الدرس وبرنامج ولا تقتصر على الكتب المقررة والمذكرات التي يملئها المعلمون؛ إذ إن هذه القراءة الحرة هي نصف التعليم، لأنها تفيد المتعلمين أكثر مما تفيدهم الدروس والكتب التي يُكرهون على قراءتها إكراهاً، وذلك لأن الإنسان ينتفع بما يقبل عليه عن رغبة، ويميل كثيراً ويعرض عما يقبل عليه عن إكراه وقسر؛ لأن الإنسان قد خلق كذلك يؤثر الحركة الحرة على الحركة التي تفرض عليه فرضاً^(٣).

وتتضح أهمية التشجيع على القراءة الحرة التي قال بها طه حسين من خلال ما نلمسه الآن من ضحالة عقلية كثير من الشباب إلا من رحم ربي، وما كان ذلك إلا نتيجة إعراض كثير منهم عن القراءة الحرة.

(١) المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) طه حسين: بين بين، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢م، نسخة رقمية، ص ٦٧.

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص ١٣٠.

هـ- يجب أن يكون إلقاء الدروس يعتمد على الإرشاد لا التلقين

يرى طه حسين أن دروس المعلمين في المدرسة يجب أن تكون إرشاداً لا تلقيناً، ودفعاً إلى استكشاف الحقائق واستنباطها لا فرضاً لهذه الحقائق على عقول الطلاب؛ إذ إنه لن يستطيع المعلم أن يرشد التلميذ، وينمي فيه ملكة البحث والحاجة إلى الاستطلاع ويُقوِّم ما يعرض له من خطأ في هذا كله، حتى يستطيع المعلم أن يعد إنساناً حراً مفكراً يبحث ويستكشف ويدرس ويستنبط ويكون لنفسه رأياً فيما حوله من الأشياء^(١).

ويرى طه حسين أن التعليم المنظم هو الذي يسيطر على تهيئة العقول لفهم الحياة والتأثر بها والاستزادة من هذا التأثر وذلك الفهم، فإذا فسد ذلك التعليم، وجف وأصبح صوراً وصيغاً تتحدث إلى الذاكرة لا إلى العقل ولا إلى القلب لم يثر نشاطاً، ولم يُرغب في ثقافة، ولم يدع إلى استزادة من علم وفهم واستقصاء^(٢).

و- إصلاح علوم اللغة العربية

يرى طه حسين ضرورة إصلاح علوم اللغة العربية (النحو، والصرف، والبلاغة)؛ إذ يجب أن تكون اللغة العربية هي لغة التدريس في المدارس؛ ولا سيما العامة منها، إذ إن اللغة العربية هي لغتنا الوطنية، وجزء مقوم لوطنيتنا ولشخصيتنا القومية، إذ إنها تنقل إلينا تراث آبائنا وتنتقل عنا التراث الذي سنتقله إلى الأجيال المقبلة، وهي الأداة الطبيعية التي نصطنعها في كل يوم، بل في كل لحظة؛ ليفهم بعضنا بعض، فهي ضرورة من ضرورات حياتنا الفردية والاجتماعية^(٣).

(١) المصدر السابق، ١٣٠.

(٢) طه حسين: أحاديث، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢م، طبعة رقمية، ص ٧٦-٧٧.

(٣) طه حسين مستقبل الثقافة في مصر، ص ١٧٦.

وكل واحد منا يدرك الإهمال الذي نال لغتنا العربية الذي جعلها بعيدة المنال، بل شديدة التعقيد وغريبة عن اللغة التي نتعامل بها في حياتنا اليومية، وهي اللغة العامية المستخدمة في البيوت والنوادي والمؤسسات المختلفة، بل المدارس كذلك، والحل الذي يراه طه حسين يكمن في إصلاح علوم اللغة العربية، ومنها النحو، والصرف، والبلاغة، حتى يتم إزالة التعقيدات والصعوبات أمام التعليم الصحيح للغة، فعل سبيل المثال: يجب قصر تعليم النحو على القدر الضروريّ وألا نفرض على الطلاب منه إلا اليسير الهين الذي لا يمكن الاستغناء عنه، وأن نقدم إليهم ذلك لا في صورة علمية يسيرة فقط، بل في صورة أدبية رائعة محببة إلى النفس كذلك، ويجب أن يكون درس اللغة العربية وآدابها تثقيفاً للعقل بما يقدم إلى التلاميذ من علم، وتذكية للقلب بما يقدم إليهم من تصوير رائع للمثل العليا، وتقويم للطبع، وتصفية للذوق بما يقدم إليهم من صور رائعة للبيان^(١).

ويجب أن تكون تلك اللغة العربية المستخدمة في التدريس هي لغتنا الفصحى لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، ولغة ما أورثنا القداماء من شعر ونثر ومن علم وأدب وفلسفة^(٢).

أما تعلم اللغات الأجنبية فإن طه حسين يرى أنه لا بد للطفل من تعلم لغة أجنبية أو لغتين في المرحلة الأولية للتعليم، ولكن لا يجب أن يبدأ في تعلم هذه اللغة الأجنبية منذ السنة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة ولا الرابعة، بل يجب في هذه السنوات أن يقتصر التعليم بالغة العربية فقط، حتى يتعلم الطفل لغة وطنه وثقافته أولاً ثم يدرس بعد ذلك لغة أو لغتين أجنبيتين^(٣).

(١) المصدر السابق، ص ١٩٠-١٩٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٢.

ويمكن القول: إن فلسفة طه حسين التربوية تقوم على استفادته من التجارب الغربية في إصلاح التعليم وذلك بجعل التعليم الابتدائي إلزاماً عاماً، أما التعليم الثانويّ فيتاح بكل نفقاته على أن يُعلّم غير القادرين على نفقاته الذين يتوافر فيهم الاستعداد العقليّ والذهنيّ لهذا النوع من التعليم، والمتفوقون بالمجان، كما يجب أن تقوم على دراسة التراث القديم من خلال اللغات القديمة منها كاللاتينية واليونانية^(١)

ز- إصلاح التعليم الدينيّ في الأزهر

يرى طه حسين أنه يجب أن تكون الثقافة التي تصدر عن الأزهر وتتغلغل في طبقات الشعب كلها، ثقافة راقية ممتازة ملائمة لحياة الشعب، وحاجاته، لا مناقضة لهذه الحاجات وتلك الحياة؛ إذ إن الأزهر مصدر الحياة الروحية للمسلمين، وهو مطالب بأن يشيع في نفوس الناس الأمن، والرضا، والأمل، والرجاء، ويعصمهم من الخوف، والسخط، ومن اليأس، والقنوط، وهو لن يبلغ منهم ذلك إلا إذا لاعم بين الثقافة التي تصدر عنه فتنشر في أقطار الأرض الإسلامية، وبين نفوس المسلمين وقلوبهم كما يكونها العصر الحديث، وكما يصوغها التعليم المدني الحديث، حتى يمتاز هذا التعليم الدينيّ من الناحيتين العملية والعلمية^(٢).

ج- إصلاح التعليم الجامعيّ

يرى طه حسين أنه يجب على الجامعة أن تختار من الذين تخرجهم المدارس الثانوية أكفأ الطلاب وأقدرهم على استيعاب الدروس العلمية، وسيلها إلى ذلك إما ترتيب النجاح في امتحان الشهادة الثانوية بحيث تقبل الناجحين وفق تفوقهم في حظوظهم من الدرجات، وإما أن تفرض امتحان جديد على الطلاب، ويرى طه حسين

(١) مصطفى عبد الغني: طه حسين والسياسة، دار المستقبل العربي، ط/١، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٨٩-

١٩٠.

(٢) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، ص ٢٦١-٢٦٤.

أن الطريقة الأولى غير منتجة في حقيقة الأمر، إذ إن امتحان الشهادة الثانوية إنما يصلح مقياساً لكفاءة الطالب إذا كان هو نفسه صالحاً، وهو لا يكون صالحاً إلا إذا كان التعليم الثانوي صالحاً من حيث نظمه، ومن حيث الذين يقومون بالتعليم فيه، ويرى طه حسين كذلك أن الامتحان الذي يمكن أن تعقده الجامعة ليس أحسن نتيجة من امتحان الشهادة الثانوية؛ لأنه إن كان امتحاناً جامعياً صحيحاً أضع الطلاب وأوقع اليأس في قلوبهم، وإن كان امتحاناً عادياً كالامتحانات التي سبقته لم تكن هناك حاجة إلى تكراره وإضاعة وقت الطلاب والممتحنين^(١).

ويرى طه حسين أننا نفسد التعليم الجامعي ومعاهده إن جعلنا غايته مقصورة على البحث الخالص البريء من كل منفعة عملية، ونفسده أيضاً إن جعلنا غايته مقصورة على البحث العملي الذي يحقق المنافع العاجلة والآجلة، بل الغاية الصحيحة من التعليم الجامعي يجب أن تكون مزجاً من هذين الأمرين جميعاً، حيث يكون فيه البحث الخالص المرتفع عن المنفعة، وفيه البحث العملي الملتمس للمنفعة وفق درجة استعداد الطلاب وميولهم وطموحاتهم، وما ركب فيهم من الملكات، وما أشربوا في قلوبهم من حب التجرد من المنفعة أو حب الإقبال عليها^(٢).

لذلك يرى طه حسين أنه يجب عدم التفرقة بين كليات العلوم الخالصة (النظرية)، وكليات العلوم التطبيقية (العملية)، إذ ليس هناك علم مهما يكن موضوعه إلا وله هاتان الناحيتان: ناحية المعرفة الخالصة التي تجد جزاءها في نفسها، وناحية المنفعة العملية التي تنتج عن كل بحث يغزو العقل وينميّه ويمكنه واستكشاف الحق على أي نحو من الأنحاء^(٣).

(١) المصدر السابق، ص ١١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٧. أيضاً مصطفى رجب: فكر طه حسين التربوي، ص ١٣٦-١٣٧.

ويرى طه حسين أنه يجب ألا تكون الجامعة مكاناً يدرس فيها العلم ويصاغ فيها التفكير، ويعنى فيها بالعقل وملكاته فقط، ولكن يجب عدم إهمال الأشياء الأخرى التي تمس الخلق، والجسم، والسيرة الشخصية الوطنية والإنسانية؛ إذ إن المعرفة وحدها ليست كل شيء، والذكاء الممتاز إذا لم يقومه خلق كريم، وسيرة فردية، واجتماعية صالحة وجسم سليم مبرأ من العلل، إذ إنها ليست مكاناً للعلم فقط، بل إنها بيئة لتلقي الثقافة بأوسع معانيها، وللحضارة بأوسع معانيها^(١).

كما أن البيئة الجامعية للطلاب يجب أن تقوم على الحب والمودة وعلى التعاون والتضامن بين أعضائها جميعاً سواء منهم الطلاب والأساتذة الذين يعملون فيها بالفعل، والذين بعدت عنهم أشخاص في الزمان أو في المكان لأن عروة هذه البيئة الجديدة أمتن وأبقى من أن يقصمها بُعد الزمان والمكان^(٢).

ويرى طه حسين أنه يجب لكي تنهض الجامعة بمهامها أن يتوفر لها الاستقلال العلمي، والإداري، والمالي؛ لأن عدم وجود هذا الاستقلال سوف يحيل الحياة الجامعية إلى عبث ويؤثر في أخلاق الطلاب وفي الصلة بينهم وبين أساتذتهم^(٣).

وأتفق في الرأي مع ما يراه طه حسين من ضرورة قيام وزارة التربية والتعليم بتهيئة طلاب المرحلة الثانوية للجامعة تهيئة تلائم التعليم الجامعي، كما يجب على الجامعة ألا تقبل طلاب فوق طاقتها؛ إذ ينشأ عن هذا ازدحام الكليات بالطلاب مع قلة في الأساتذة وضيق في الأمكنة، وتكون النتيجة الطبيعية فساد التعليم الجامعي أو

(١) طه حسين مستقبل الثقافة في مصر، ص ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٠.

قصوره عن تحقيق ما ينتظر منه، وتفسد معه الأخلاق، والنظام، ثم تكون النتيجة أيضاً أن الطلاب لا ينتفعون بهذا التعليم كما ينبغي^(١). وهذا ما نجده في واقعنا الحالي.

ولا يكتمل إصلاح التعليم الجامعي عند طه حسين إلا بإصلاح نظام الامتحانات، حتى يكون وسيلة فقط لنيل الدرجة العلمية، لا للحصول على الوظائف؛ إذ يجب أن يكون الحصول على وظائف الدولة بعقد مسابقة واختبار يتقدم فيها الحاصلون على أعلى الدرجات العلمية، وتستطيع الدولة أن تتشدد في هذا الاختبار، حتى تنال الأكفاء منهم في دواوينها المختلفة، كما أن جعل الدرجة العلمية شرطاً للحصول على الوظيفة يفسد التعليم الجامعي، ويجعله وسيلة إلى الفوز في الامتحان، وتشغل الطالب عن لذة الدرس ومتعة البحث^(٢).

ونخلص من ذلك إلى أن طه حسين استطاع أن يضع فلسفة تربوية تقوم على أساس من العقلانية والديمقراطية، والحرية وإصلاح التعليم في مختلف مراحلها، ونلاحظ أن فلسفة طه حسين التربوية تتسم بالمثالية القائمة على منهج العقل؛ إذ نجد أن طه حسين يحتفي بالعقل حفاوة بالغة، كما نجده يهتم بالفكر الأفلاطوني خاصة؛ لأنه يمجّد العقل؛ ويجعل الفلاسفة وحدهم هم القادرين على تدبير الحياة الفردية والاجتماعية؛ لأنهم وحدهم قادرون على تصور الخير والوصول إليه، حيث نرى أن طه حسين يحاول عن طريق فلسفته التربوية المثالية العقلية أن يتلمس بها نموذج المجتمع المثالي الذي حاول أن يدعو إليه، وهو مجتمع تسود فيه العدالة الاجتماعية، والديمقراطية، والحرية العقلية، وكانت التربية هي أهم الوسائل في سبيل إقامة ذلك المجتمع، ويرى

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٨-٢٦٠.

الدكتور كمال حامد مغيث أن هناك ثلاثة أسباب رئيسة هي التي جعلت فلسفة طه حسين التربوية تتسم بالمثالية وهي^(١):

أ- دراسة طه حسين المتعمقة للفكر اليونانيّ في أثناء بعثته في فرنسا؛ إذ نجده قد تأثر بالفكر اليوناني تأثراً كبيراً إلى الحد الذي عدّ فيه فلاسفة اليونان هم قادة الفكر في العالم كله وفي مختلف العصور، ويعد أفلاطون أحد أعمدة ذلك الفكر، وأحد الدعامات الرئيسة فيه.

ب- ما أصيب به طه حسين في طفولته المبكرة من فقد بصره، وبصرف النظر عن الأثر النفسيّ الذي تركته تلك الآفة في شخصيته، إلا أنها - كما يقول عنها- جعلته يستكشف خصلة رأى أنها صحبته منذ الصبا، وهي الظمأ الشديد إلى المعرفة، والظمأ الذي لا يطفئه اكتساب العلم، بل يزيده قوة وشدة والتهاباً، إذ إن حاجة من ذاق المعرفة أشد الحاجات وأعظمها إغراء بالتزديد، ومما لا شك فيه أن المعرفة التي يعيها طه حسين هنا هي المعرفة العقلية المثالية التي لا تعتمد على حواس المبصرين وجهدهم.

ج- والسبب الأخير يرتبط بالتطور الموضوعيّ في علوم اقتصاديات التربية والتعليم، ونظرة المجتمع للتربية والتعليم في مصر قبل سنة ١٩٥٢م؛ إذ لم تكن قد ظهرت بعد الأفكار التي تؤمن بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة التي تتخذ من التخطيط وسيلة لتحقيق تلك التنمية اعتماداً على اقتصاديات التربية، وترى أن القوى البشرية هي أهم عنصر من عناصر تلك التنمية الشاملة، وهو الأمر الذي كان سيتطلب بالضرورة من أي مفكر تربويّ أن يضع في اعتباره متطلبات تلك التنمية في مختلف أنواع التعليم النظريّ والفنيّ.

(١) كمال حامد مغيث: طه حسين، ص ١٢٩-١٣١.

وفي نهاية هذه الدراسة توصلت إلى النتائج الآتية

أولاً- هناك ترابط بين أفكار طه حسين التربوية؛ إذ يمكن القول: إنها تشكل فلسفة تربوية متميزة، اهتم طه حسين عن طريقها بتنمية الفرد من الناحية المادية، والمعرفية، والأخلاقية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية؛ إذ يرى أن التربية لا تستقيم إلا إذا كانت في مجتمع ديمقراطي سليم، يقوم على أساس من الحرية، والعدالة الاجتماعية، ولا سيما في مجال التعليم؛ إذ يجب ألا يفرق بين أبناء الشعب، وأن يتاح لهم تعليم مناسب، قادر على بناء شخصية واعية تدافع عن حقوقها وحقوق وطنها بعد صقلها بالمعارف المختلفة.

ثانياً- فلسفة طه حسين التربوية ذات طبيعة مثالية عقلية؛ إذ نجده يُعلي من شأن العقل، ويتخذ من العقلانية أسلوباً للحياة، وينتهج الشك الديكارتي من أجل الوصول إلى اليقين؛ إذ يدرك أن السبيل إلى المعرفة الحقة لا تكون إلا عن طريق العقل، ويرجع ذلك إلى تأثره بأراء الفلسفة اليونانية ولا سيما الأفكار الأفلاطونية المثالية قديماً، وآراء الفيلسوف ديكارت عن العقل حديثاً، لذلك جاءت فلسفة طه حسين التربوية ذات طابع مثالي عقلي.

ثالثاً- بنى طه حسين فلسفته التربوية على أساس من العقلانية، التي تدعو الإنسان إلى تبني المنهج العقلي بوصفه أسلوباً للحياة، تلك العقلانية التي تحكم كل تصرفاته، فلا يقبل شيء إلا بعد تمحيصه ونقده، ثم تأتي تصرفاته وفق ما يمليه عليه العقل، كما أن التربية لن تؤتي أكلها إلا عن طريق مجتمع يتوافر فيه مناخ الحرية والديمقراطية، يتربى فيه الإنسان على العزة والكرامة والشجاعة، وليس على الذل والمهانة والاستسلام، ويرى كذلك أن أمر التربية لا يستقيم إلا بإصلاح التعليم.

رابعاً - أثرت النزعة النقدية لدى طه حسين في فلسفته التربوية؛ إذ يرى أن الأسئلة هي مفاتيح العلم، ولا بد للعقل من أن يقوم بتمحيص كل ما يرد عليه، وأن يضع كل ما يطرح عليه موضع المساءلة؛ لذلك كان طه حسين يرى أن التربية لا تستقيم إلا مع الحرية، التي تطلق للعقل العنان في التفكير، وتنبذ التقليد، إذ إن تلك النزعة النقدية هي القادرة على بناء إنسان قادر على مواجهة العقبات التي تعترض الحاضر، والسعي نحو الارتقاء والتقدم في المستقبل، لذلك جاءت فلسفته التربوية متسقة مع اتجاهه النقدي.

خامساً - كان للفلسفة التربوية لدى طه حسين عظيم الأثر في المجتمع ولا يزال حتى الآن ليس في مصر وحدها، بل في معظم البلاد العربية والإسلامية أيضاً؛ إذ إن طه حسين دعا إلى أن يكون التعليم متاحاً لكل أبناء الوطن من دون تمييز بينهم في مستوى ذلك التعليم؛ بسبب طبقاتهم الاجتماعية، ورأى أن يكون ذلك التعليم مجانياً وإلزامياً، فالتعليم كالماء والهواء وهو حق لكل مواطن لا يمكن الاستغناء عنه أو التنازل فيه، وهو ما تحقق بالفعل.

سادساً - أرى أنه يمكن الاستفادة من فلسفة طه حسين التربوية في الوقت الحالي؛ لإصلاح أوجه القصور في النظام التربوي والتعليمي في مصر، إذا طبقت هذه الفلسفة تطبيقاً صحيحاً على النحو الذي قصد إليه طه حسين نفسه على سبيل المثال:

أ- دعا طه حسين إلى أن تتحمل الأسر تكاليف التعليم الثانوي على أن يكون متاحاً بالمجان فقط لغير القادرين على تحمل نفقاته، بشرط أن يكونوا نابهيين لديهم الاستعداد العقلي للانتفاع من هذا النوع من التعليم، ونبه إلى خطورة أن يتاح هذا النوع من التعليم الثانوي لكل أبناء الشعب

بالمجان؛ إذ إن ذلك يؤدي إلى تكديس المدارس بالطلاب، وتحمل الدولة تكاليف فوق طاقتها، وضعف مستوى التعليم، وضعف مستوى تحصيل الطلاب، وهو الأمر الذي نشهده بوضوح الآن.

ب- دعا طه حسين إلى إصلاح نظام الامتحانات حتى يكون وسيلة لإدراك المعارف وليس غاية في حد ذاتها، ونبه إلى خطورة أن تنقلب الوسائل إلى غايات والغايات إلى وسائل، إذ إن ذلك يضعف إفادة الطالب من العلم؛ إذ إن غرض الطالب هو اجتياز الامتحان؛ من أجل الحصول على الشهادة من دون وجود استفادة حقيقية تعود على الطالب من ذلك، وهو الأمر القائم بالفعل، والذي جعل مصر في ذيل الترتيب العالمي في جودة التعليم.

ج- دعا طه حسين إلى أن يكون التعليم قائماً على القراءة الحرة، وليس على كتب معدة سلفاً تحدد فيها موضوعات الدراسة تحديداً تاماً وضيقاً، بل لا بد من التشجيع على القراءة الحرة، والحق هذا ما تحاول الدولة المصرية فعله الآن عن طريق نظام (التابلت) على الرغم من القصور في توفير البنية التكنولوجية المناسبة لهذا النوع من التعليم وعدم توفير المناخ المناسب له حتى الآن.

المصادر والمراجع

- ١- أبو العزم (الدكتور/عزمي زكريا): الفكر العربيّ الحديث والمعاصر، دار المسيرة، ط/١، عمان الأردن، ٢٠١٢م.
- ٢- إسماعيل (الدكتورة/ فاطمة إسماعيل): التفكير الفلسفيّ عند زكي نجيب محمود، منهج وتطبيقه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م.
- ٣- بلدي (الدكتور/نجيب بلدي): ديكارت، دار المعارف، ط/٢، مصر، ١٩٦٨م.
- ٤- الحاج (الدكتور/أحمد على): في فلسفة التربية " نظرياً وتطبيقياً"، دار المناهج، ط/١، الأردن، ٢٠١٤م.
- ٥- حسان (الدكتور/محمد حسان): مقدمة في فلسفة التربية، د. ن، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ٦- حسين (الدكتور/طه حسين): أحاديث، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢م، طبعة رقمية.
- ٧- حسين (الدكتور/ طه حسين): بين بين، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢م، نسخة رقمية.
- ٨- حسين (الدكتور/طه حسين): ترجمة كتاب نظام الأثينيين لأرسطو، دار المعارف، مصر، ١٩٢٨م.
- ٩- حسين (الدكتور/طه حسين): فلسفة ابن خلدون الاجتماعية " تحليل ونقد"، نقله إلى العربية، محمد عبد الله عنان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٢٥م.
- ١٠- حسين (الدكتور/طه حسين): في الشعر الجاهليّ، دار المعارف، ط/٢، سوسة، تونس، ١٩٩٨م.
- ١١- حسين (الدكتور/طه حسين): مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، ط/٢، القاهرة، ١٩٩٦م.

- ١٢- حسين (الدكتور/طه حسين): من بعيد، نشرة الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، من دون تاريخ.
- ١٣- الخوالدة(الدكتور/محمد محمود): مقدمة في فلسفة التربية، دار المسيرة، عمان، الأردن، ٢٠٠٣م.
- ١٤- ديكارت(الفيلسوف/ رينيه ديكارت): قواعد توجيه الفكر، ترجمة سفيان سعد الله، دار سراس للنشر، تونس، ٢٠٠١م.
- ١٥- ديوي (جون ديوي): الديمقراطية والفلسفة، مقدمة في فلسفة التربية، نقله إلى العربية، متى عقراوي، وزكريا مخائيل، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٤م.
- ١٦- ذكريا (الدكتور/فؤاد ذكريا): قيم النهضة الفكرية عند طه حسين، مقالة منشورة في مجلة الآداب، العدد ٣، لبنان، مارس ١٩٧٤م.
- ١٧- الذهبي(شمس الدين محمد بن أحمد): سير أعلام النبلاء، ج/٩/١٠، إشراف وتحقيق شعيب الأرنؤوط، تحقيق محمد نعيم، مؤسسة الرسالة، ط/١، بيروت، ١٩٨٢م.
- ١٨- رجب (الدكتور/مصطفى رجب): فكر طه حسين التربوي بين النظر والتطبيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.
- ١٩- زقزوق (الدكتور/محمود حمدي): المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ٢٠- السامرائي (الدكتور/ماجد السامرائي): الثقافة والحرية " قراءة في فكر طه حسين"، الأهالي، ط/١، دمشق، ١٩٩٦م.
- ٢١- عبد الغني (الدكتور/مصطفى عبد الغني): طه حسين والسياسة، دار المستقبل العربي، ط/١، القاهرة، ١٩٨٦.
- ٢٢- الغزالي (أبو حامد محمد): ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، ط/١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.

- ٢٣- الكواكبي (عبد الرحمن الكواكبي): طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، من دون تاريخ.
- ٢٤- الكيلاني (الدكتور/ماجد عرسان): فلسفة التربية الإسلامية، دار المنار، ط/١، جدة، ١٤٠٧هـ.
- ٢٥- لوبون (غوستاف لوبون): روح التربية، ترجمة طه حسين، مقدمة الكتاب بقلم طه حسين، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣م طبعة رقمية.
- ٢٦- محمود (الدكتور/زكي نجيب): تجديد الفكر العربي، دار الشروق، ط/٩، القاهرة ١٩٩٣م.
- ٢٧- محمود (الدكتور/ زكي نجيب): قصة عقل، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ٢٨- محمود (الدكتور/زكي نجيب): من زاوية فلسفية، دار الشروق، ط/٤، القاهرة، ١٩٩٣م.
- ٢٩- مغيث (الدكتور/كمال حامد): طه حسين مصادر الفكرية- العدالة الاجتماعية الديمقراطية- الحرية الأكاديمية- الفكر التربوي- الهوية الثقافية، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، ط/١، القاهرة، ١٩٩٧م.
- ٣٠- مطر (الدكتور/أميرة حلمي): الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م.

المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت

- ١- عصفور (الدكتور/جابر عصفور): مقالة بعنوان "رؤى نقدية فكر طه حسين" النسخة الإلكترونية من جريدة الأهرام، بتاريخ ١٦ نوفمبر ٢٠١٨ السنة ١٤٣ العدد ٤٨١٩٢ متاح في

<https://gate.ahram.org.eg/daily/News/202833/4/680288/%D9%82%D8%B6%D8%A7%D9%8A%D8%A7->

<http://www.albawabhnews.com/writer/478>

٢- على (الدكتور/حسين على): مقالة منشورة على شبكة الإنترنت بعنوان " النزعة النقدية عند طه حسين" بتاريخ ١٢ فبراير ٢٠٢٠م متاحة في:
albawabhnews.com/writer/478